مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٢ - البحث ٦

الجذور التاريخية لظاهرة التكفير عند الخوارج

النشأة – التطور– الآثار

أ.د. محمد عيسى الحريري

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
العميد الأسبق لكلية الآداب جامعة المنصورة
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مقدمة

إن العنف والإرهاب الذي تمارسه بعض الجماعات التي تُنْسَبُ إلى الإسلام، إنما هو إفراز لفلسفة معينة تتبناها هذه الجماعات، التي نسجت لها فقهاً خاصاً بها يعتمد على مجموعة من القواعد الأساسية أخطرها التكفير للمخالفين لهم، وهذا الفقه هو نفسه الفقه الخارجي لدى جماعات الخوارج والذي تعتمد فيه على المتشابهات وتَدَعُ المحكمات من الآيات، وتستند إلى الجزئيات وتهمل الكليات، وتتمسك بظواهر الآيات وتغفلُ المقاصد، كما تغفل ما يعارض هذه الظواهر من نصوص وقواعد، وكثيراً ما تضع الأدلة في غير موضعها، وتُخرجها عن سياقها وإطارها، وتروج هذه الجماعات المتطرفة لذلك كله لدى بعض الأغرار من الشباب والسطحيين من الناس، الذين يقفون عند السطوح ولا يغوصون في الأعماق لإدراك المقاصد، وأقاموا ذلك كله على فكر الخوارج الذي عفا عليه الزمن، هؤلاء الخوارج الذين كانوا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ويتخذون من التكفير محوراً أساسياً لمذهبهم، ومرتكزاً لأفعالهم الخبيثة في المجتمعات الإسلامية قديماً وحديثاً.

وسوف نتناول في هذه الدراسة تعريفاً بالتكفير والخوارج لغة واصطلاحاً، ونشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج، وتطور هذه الظاهرة عندهم، وأثرها في انقسام الخوارج إلى فرق مختلفة، ثم نتناول أثر ظاهرة التكفير عند الخوارج على ما ظهر في الآونة الأخيرة من جماعات وتنظيمات اعتنقت التكفير الخارجي، ودوافع هذه الجماعات وأثرها على المجتمعات الإسلامية محلياً وعالمياً.

تمهيد

يمثل فكر الخوارج ظاهرة سياسية ودينية ثبت خطرها الكبير على المجتمعات الإسلامية، حيث استطاع الخوارج منذ أحداث الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، والتي مهدت لظهورهم بما سببته من جرأة على رأس الدولة وخليفتها إلى حد قتله، وتمثل أحداث هذه الفتنة، وما جاء بعدها من أحداث، الجذور الخفية لظاهرة التكفير، التي أصبحت أساساً لكل مبادئهم المعاكسة لكل ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ عظيمة، كان أهم أهدافها تحقيق الأمن والأمان والسلامة للمجتمع الإسلامي، والسلام الشامل بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات الأخرى في أنحاء العالم.

مهدت أحداث الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة عثمان –رضي الله عنه– إلى فكرة الخروج على ولي الأمر ورأس الدولة وخليفتها لدى فرقة الخوارج، التي ظهرت بهذا الاسم في زمن الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وبعد ذلك في كل العصور التي تلته وحتى الآن.

وقد حذر رسول الله – ﷺ – من غبار هذه الفتنة القاسية على المجتمعات الإسلامية، حيثما وُجد هؤلاء الخوارج، فعن أبي سعيد الخدري– رضي الله عنه– قال: "بعث علي–رضي الله عنه– إلى النبي – ﷺ –، بذُهَيْبَةٍ، فقسمها بين الأربعة: الأَقْرَعِ بن حابسٍ الحَنْظَلِيِّ ثم المجُاشعى، وعُيَيْنَة بن بدر الفِزَارِى، وزيد الطائي، ثم أحد بنى نَبهان، وعلقمة بن عُلاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، فغضبت قريش والأنصار، قالوا يُعطي صناديد أهل نجد ويدعُنا، قال– ﷺ– إنما أتألفهم، فأقبل رجل غائر العينين، مُشْرِفُ الوجنتين، ناتئُ

الجَبين، كَثُّ اللحية، مَحْلُوقٌ، فقال: اتق الله يا محمد، فقال – ﷺ –: من يطع الله إذا عصيتُ، أيأمنني الله على أهل الأرض، فلا تَأْمَنُوني؟ فسأله رجل قَتْلَهُ، أَحْسِبُهُ خالدُ بن الوليد، فَمنعه رسول الله – ﷺ – فلما وَلىَّ قال ﷺ: إن من ضِئْضِئِ هذا – أو في عَقِبِ هذا– قَوْمٌ يقرؤن القرآن، لا يُجاوزُ حناجرهم، يَمْرُقُون من الدين مُرُوق السَّهْم من الرَمِيَّةِ، يقتلون أهل الإسلام، ويَدعَون أهل الأوثان، لَئِنْ أنا أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عادٍ"[1].

حكم رسول الله – ﷺ – على هؤلاء الخوارج مع كثرة صلاتهم وصيامهم، وقراءتهم للقرآن، وذكرهم لله تعالى، بالمروق من الدين كما يمرق السهم من الرَمية، لأنهم يُكَفِرون من لا يستحق الكفر، ولذلك فمن حكم على أحد بالكفر، وهو ليس كذلك فإنه من الخوارج الذين أمرنا رسول الله – ﷺ – بقتلهم كقتل عاد[2].

ومن المهم هنا أن أشير إلى أن التكفير نشأ متدرجاً وملازماً لأحداث الصراع الذي مرت به حركة الخوارج في صراعهم مع السلطة الشرعية المتمثلة في الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– ومن جاء بعده من ولاة أمر المسلمين، فالنظرية الخارجية قامت في أساسها على مبدء التكفير الذي أرسى قاعدة أخرى مهمة لديهم وهي قاعدة البراءة من المخالفين لهم، وأصبح مبدأ التكفير وقاعدة البراءة من المخالفين متلازمين في فكر الخوارج القدماء والمحدثين في هذه الأيام تلازم اللحم والعظم في الجسد الواحد.

(١) البخاري: صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ج٥، ص٣٣٠، ٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩).

(٢) الفوزان: التكفير وضوابطه، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص١٠٨.

التكفير لغة واصطلاحاً:

الكُفْرُ، بالضَّمِّ: نقيضُ الإيمان، وأصل الكُفْرِ من الكَفْرِ بالفتح بمعنى الستر والتغطية، ولذلك يقال رجل كافِرٌ أي جاحد لأنعم الله لأنه مُغطًّى على قلبه. وجمعه كُفَّارٌ وكَفَرَةٌ وكِفَارٌ.

فالكافر عندما دعاه الله إلى توحيده، فقد دعاه إلى نعمة، وأحبها له إذا أجابها، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله أي مغطياً لها بإبائه حاجبا لها عنه.

والنعم التي سترها الكافر هي آيات الله – سبحانه وتعالى– الدالة على توحيده، والتي أبانت لذوي التمييز أن خالقها واحد لا شريك له، وأنه – تعالى– أرسل الرسلَ بالآيات المعجزة، والكتب المنزلة والبراهين الواضحة وهي نعمٌ منه ظاهرة، فمن لم يصدق بها وردَّها فقد كَفَرَ نعمة الله، أي سترها وحجبها عن نفسه[1].

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وذكر ابن منظور في لسان العرب، والزبيدي في تاج العروس أن الكفر على أربعة أنواع: كُفْرُ إنكار بألا يَعْرِفَ اللّهَ أصلاً، ولا يَعْتَرِفَ به، وكُفر جُحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق، ومن لقي ربه بشيءٍ من ذلك لم يُغْفَر له، ويَغْفِرُ اللّه – تعالى– ما دُون ذلك لمن يشاء[4].

فأما كفر الإنكار فهو أن يكْفُرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرفُ ما يُذكر له

(1) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، ج٥، مادة (ك ف ر).
(2) سورة البقرة: الآية (٨٩).
(3) سورة البقرة: الآية (١٤٦).
(4) المصدر السابق، نفس المادة، الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العليم الطحاوى، سلسلة التراث العربي، الكويت ١٩٧٤، ج١٤، مادة (ك ف ر).

من التوحيد، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[1].

أما كُفْرُ الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقر بلسانه فهو كافر جاحد ككفر إبليس ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[2].

وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه ويقر بلسانه، ولا يدين به حسداً وبغياً ككفر أبي جهل وأَحْزَابِه، أو أنه يعترف بقلبه ويقر بلسانه ويأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول معبراً عن حالته[3]:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حِذارُ مَسبَّةٍ ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

أما كفر النفاق بأن يقر بلسانه ويكفُر بقلبه ولا يعتقد بقلبه.

والتكفير اصطلاحاً: نسبة أحد أهل القبلة إلى الكفر، على أي حالة من تلك الأحوال السابقة[4] ولكن الذي ينبغي أن ننبه إليه أن التكفير حكم شرعي، وحق محض للرب سبحانه وتعالى لا تملكه هيئة من الهيئات، أو جماعة من الجماعات، أو فرد من الأفراد وإنما لا يكْفُر إلا من كَفَّرَهُ الله ورسوله. فالتكفير حق لله[5]. ولذلك فمن ضوابط التكفير أن الأصل في المسلم الظاهر العدالة بقاء إسلامه وبقاء عدالته حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل في تكفيره أو تفسيقه لأن في

(١) سورة البقرة: الآية (٦).
(٢) سورة البقرة: الآية (٨٩).
(٣) ابن منظور: مصدر سابق، نفس المادة.
(٤) الزبيدي: مصدر سابق، نفس المادة.
(٥) د. باسم بن فيصل الجوابرة: التكفير في ضوء السنة النبوية، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود العالمية، الدورة الثانية، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، ص٥٨.

ذلك محذورين عظيمين[1].

أحدهما: افتراء الكذب على الله تعالى في الحكم والمحكوم عليه في الوصف الذي وصَفَهُ به وهو التكفير.

الثاني: الوقوع فيما وصف به أخاه إن كان سالماً منه، ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر –رضي الله عنهما– أن النبي – ﷺ – قال: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما"[2].

كذلك يجب التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المُعَيّن:

فالتكفير المطلق: هو الحكم بالكفر على القول أو الفعل أو الاعتقاد الذي ينافي أصل الإسلام ويناقضه، وعلى فاعليها على سبيل الإطلاق بدون تحديد أحد بعينه.

أما تكفير المعين: فهو الحكم على المعين بالكفر لإتيانه بأمر يناقض الإسلام بعد استيفاء شروط التكفير فيه وانتفاء موانعه[3].

الخوارج لغة واصطلاحاً:

الخوارج مفردها خارجي وهم جماعة تمثل أقدم الفرق الإسلامية، ولزمهم هذا الاسم كما يقول ابن منظور "لخروجهم على الناس"[4]، أو لأنهم "قوم من أهل الأهواء لهم مقالة على حدة"[5]، ويؤيد هذا المعنى بعض مؤرخي الفرق الإسلامية ففي ذلك يقول الشهرستاني إن كل "من خرج على الإمام الحق

(١) المرجع السابق، ص٥٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، طبعة القاهرة، ١٤٢١هـ–٢٠٠٠م، ج٩، ص٢٥١، ٢٥٢، (كتاب الأدب) برقم (٥٤٠٣).

(٣) المرجع السابق، ص٧٨، د. عبد المجيد سالم بن عبد الله المشعبي: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، مكتبة أضواء السلف، الرياض ١٤١٨هـ–١٩٩٧م، ج١، ص١٩٣.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص١١٢٦.

(٥) المصدر السابق، نفس الصفحة.

الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان والأئمة في كل زمان"[1].

وفي الاصطلاح أُطلقت لفظة الخوارج على الجماعة التي كانت ضمن جيش الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– في أثناء نزاعه مع معاوية بن أبي سفيان في موقعة صفين[2] وأجبروا علياً –رضي الله عنه– على قبول التحكيم ثم خرجوا عليه بعد أن جرى أمر التحكيم على خلاف ما يريدونه وقالوا لعلي– رضي الله عنه–: "لم حكَّمت الرجال؟ لا حكم إلا لله"، ولذلك سموا بالمحكمة، وخرجوا من معسكر الإمام علي –رضي الله عنه– إلى كُوْرَة حروراء بالقرب من الكوفة، فسموا أيضاً بالحرورية نسبة إلى هذا الموضع[3]. كما سموا أنفسهم أيضاً "الشراة" اعتقاد منهم أنهم بعملهم هذا قد اشتروا الآخرة بالدنيا، أو أنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله[4].

نشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج:

المتتبع لأحداث الفتنة التي حدثت زمن الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه– والتي انتهت بمقتله يرى أن أموراً كثيرة كانت تدور في جنبات الدولة الإسلامية، وأن هذه الأمور أخذت في التصاعد حتى كانت الفتنة بما فيها من أحداث مروعة زلزلت كيان الدولة الإسلامية، وأحدثت فيها تطورات سريعة ومتتابعة أنهت عصر الخلفاء الراشدين، وأدت إلى نشأت نظام سياسي جديد

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤م، ج١، ص١١٥.
(٢) صفين: بكسرتين وتشديد الفاء، موضع بالقرب من الرقة على الشاطئ الغربي للفرات (ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة دار صادر بيروت، (د.ت)، ج٣، ص٤١٤).
(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١١٥، (حروراء بفتحتين وسكون الواو، وراء أخرى وألف ممدودة، قرية بالكوفة على ميلين منها، ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٥).
(٤) الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٥م، ص١٥٧.

يتمثل في الدولة الأموية، وفي نفس الوقت ظهرت فرقة الخوارج بما لديها من فكر أساسه الغلو والتكفير في كل ما تناولته هذه الفرقة من قضايا سياسية ودينية واجتماعية.

ولاشك أن العوامل المسببة لهذه الفتنة، كان لها أثرها الكبير في تشكيل حركة معارضة خبيثة، مارست الغلو في أبشع صوره، غُلوٌ يعتمد على جملة من الافتراءات على شخص عثمان –رضي الله عنه– ومهدت بهذا الغلو إلى ما ظهر في أثناء الفتنة من رغبة في التخلص من الخليفة سواء بإجباره على التنازل عن حقه في الخلافة، أو تكفيره في النهاية وقتله. بل إن حركة المعارضة هذه أوجدت حالة من الجرأة في فكر كل من ينتمي إليها، ولا يخفى أنها كانت لها رغباتها وأطماعها في تخريب دولة الإسلام، وبعث الخلاف والتمزق في أوصالها.

بدأت مقدمات الحركة الخارجية في الظهور منذ فترة مبكرة، وبعد السنين الست الأولى من عهد الخليفة عثمان بن عفان –رضي الله عنه–، وظهرت طلائع هذه الحركة في صورة مكيدة كبرى دبرها عبد الله بن سبأ الذي كان يهودياً أسوداً أسلم في زمن عثمان – رضي الله عنه– وتنقل في الأمصار الإسلامية فمر بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام، ولكن أُكْتشف أمره وأُبعد من هذه الأمصار جميعاً، حتى أتى إلى مصر، واستمال في هذه البلاد قلوب بعض الناقمين على الولاة، وبدأ يبث أفكاره السامة المضللة، وعقائده المنحرفة، مستغلاً جهل المتقبلين لهذه الأفكار كالقول برجعة الأنبياء، والأوصياء، وإن كل نبي له وصي، وأن علياً وصي محمد، وانتقل بعد ذلك إلى الطعن في الخليفة عثمان –رضي الله عنه– وأنه أخذ الخلافة بغير حق، وزين لهم الطعن على الولاة والخروج عليهم في صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستطاع أن يكوِّن خلايا سرية في تلك

الأمصار، تجري بينهم وبينه مكاتبات، يحيكون بها المؤامرات، ويضعون الخطط للثورة والخروج على الخليفة عثمان رضي الله عنه[1].

وعن طريق الدعاية الواسعة التي نشرها ابن سبأ في الأمصار، استطاع السبئيون أن يتحركوا إلى المدينة المنورة، واضعين بذلك البذرة الأولى لخروج جماعي منظم على سلطة الخلافة، وكان عددهم كما يروي ابن كثير في أكثر من موضع ألفي مقاتل مدججين بالسلاح، وهو عدد كبير بالنسبة لأهل المدينة في ذلك التوقيت، لأن أكثر أهل المدينة كانوا قد خرجوا للحج، كما أن معظم الصحابة كان عثمان –رضي الله عنه– قد سمح لهم بمغادرة المدينة إلى الأمصار، وكان عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– قد منعهم في عهده من الخروج من المدينة، وكانوا له هيئة استشارية كبيرة، علاوة على أن كثيراً ممن تبقى في المدينة من الصحابة قد آثر اعتزال هذه الفتنة ولزموا بيوتهم[2]. وهكذا لم يكن في مقدور أهل المدينة ومن تبقى فيها من الصحابة وأبنائهم أن يدفعوا هذا الخطر عن عثمان –رضي الله عنه–، وفي ذلك يقول ابن كثير: "والخوارج محدقون بدار عثمان –رضي الله عنه– وربما لو أرادوا (أهل المدينة) صرفهم عن الدار لما أمكنهم ذلك"[3].

حاصر الثوار بيت عثمان –رضي الله عنه–، وشعر كبار الصحابة الموجودين في المدينة في ذلك الوقت وعلى رأسهم علي بن أبي طالب– رضي الله عنه– بخطورة الموقف، فحاولوا تهدئة الثائرين، وطلب هؤلاء الصحابة من عثمان– رضي الله عنه– أن يستمع إلى شكايتهم، والمظالم التي زعموها،

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ–١٩٩٣م، ج٢، ص١٩٧، ١٩٨، د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، طبعة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م، ص٤٣، ٤٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٧٩، ١٩٧.

(٣) المصدر السابق، ص١٩٧.

وفعلاً وعد الخليفة بعد أن استمع إليهم بأنه سيرد الحق إلى نصابه، وأن يختار لإمرة المسلمين في ولاياتهم من يرضونه ويُرضي الله ورسوله، وبهذا هدأت الأحوال وتفرقت الجموع عائدة إلى الأمصار[1].

ولكن قادة هؤلاء الدهماء لا يرون في هذا الذي حدث تحقيقاً لأهدافهم، فزيفوا كتاباً اختلقوا فيه مزاعم تدعو إلى عودة الثوار بعد أن قطعوا شوطاً من طريق سفرهم، فهذا الكتاب تضمن أمراً زائفاً من عثمان إلى والي مصر بمعاقبة هؤلاء الثوار عند عودتهم وقتلهم وصلبهم، فلما قرؤوا الكتاب عادوا مسرعين إلى المدينة ليُجدِّدوا الحصار مرة ثانية وهم مصممون على عزل الخليفة أو قتله[2].

وطلب زعماء الثوار من عثمان أن يتوب إلى الله من ذنبه، وهذا يعني أنهم مصرون على تخطئة عثمان وتكفيره، وهذا يعني أيضاً أن هذه الثورة حملت في أحشائها فكرة التكفير أساساً لحركتهم وأنها اتسعت بعد ذلك على نحو ما حدث في الخلاف الذي نشب بين علي ومعاوية –رضي الله عنهما–، وكان الثوار يصيحون في عثمان "تب إلى الله، فرفع (عثمان) يديه وقال: اللهم إني أول تائب"[3].

ومما يعزز أن زعماء هذه الثورة كانوا يتبنون فكرة التكفير، أن أحد زعمائهم الذين اشتركوا في قتل عثمان– رضي الله عنه–، وهو رومان بن سودان، وكان كما وصفه ابن كثير رجلاً "أزرق قصير مُحَدَدٌ عِدَادُهُ من مُراد"[4]. كان معه عودٌ من حديد دخل به على عثمان فاستقبله، وقال له:

(١) د. أحمد محمد أحمد جلى: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين، ص٤٤.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص١٦٠.
(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٩٨.

(لعثمان) على أي ملة أنت يا نعثل؟ فقال عثمان: لست بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين" وهذا يعني حكما بالكفر على عثمان رضي الله عنه[1]. وقد اعتور هذا الخارجي عثمان بالحديدة فضربه بها على صِدْغِهِ الأيسر فقتله[2].

ومن زعمائهم أيضاً حرقوص بن زهير السعدي[3]، وهو ذلك الرجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناتئ الجبين، كث اللحية محلوق الرأس، الذي قال: لرسول الله – ﷺ – وهو يوزع الذهبية التي بعث بها علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– من اليمن على بعض الحاضرين تأليفاً لقلوبهم، والذي ذكرناه في التمهيد لهذه الدراسة، والذي ذُكر في أحاديث أخرى تُشير إلى نفس شخصية هذا الرجل فتارة نجد الحديث يذكره تحت اسم "حرقوص بن زهير ذو الخويصرة التميمي". وهذا الرجل أيضاً هو ذو الثُدْية الذي أمر علي بن أبي طالب–رضي الله عنه– بالبحث عنه في أعقاب معركة النهروان، فوجد ضمن القتلى فقد كان رأساً من رؤس الخوارج، الذين عرض الخوارج عليه إمامتهم فرفضها، وقبل إمامة الصلاة وحدها[4].

(١) المصدر السابق، نفس الصحفة. (نعثل: أي الشيخ الأحمق، ونعثل أيضاً كما يروي ابن منظور: "رجل من أهل مصر كان طويل اللحية، قيل أنه كان يشبه عثمان" ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٤٤٧٠).

(٢) ابن كثير: المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) حرقوص بن زهير السعدي: من بني تميم، كان أحد رؤس الخوارج السبئية، وأمير خوارج البصرة الذين تمكن طلحة والزبير فيما بعد من قتلهم جميعاً، ولم يفلت منهم إلا حرقوص والذي قتل بعد ذلك مع الخوارج في معركة النهروان، الطبري: تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة، ج٤، ص٧٦، ٣٤٩.

(٤) راجع البخاري: صحيح البخاري، ج١٠، ص٣٣٣، ٣٣٤ (كتاب المرتدين والمعاندين) برقم (٦١٩٤)؛ ج٥، ص٣٣٠، ٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩)؛ ج٦، ص٥٤، ٥٥، ٥٦، (كتاب المناقب) برقم (٣٢٢٩، ٣٢٣٠)؛ د. سهير القلماوي: أدب الخوارج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ٢٠١٠، ص ٢٤–٢٧؛ النهروان: كُورَة واسعة بين بغداد وواسط، ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٤، ٣٢٥.

هذا الرجل كان قائداً للبصريين الثائرين على عثمان –رضي الله عنه– وكان نواة يلتف حولها قوم يحملون بعد ذلك اسم الخوارج، كانوا في أثناء الثورة على عثمان –رضي الله عنه– يكفرون الخليفة فقط، أما عندما أصبحوا خوارج يمثلون فرقة لها أثرها في توجيه الأحداث في دولة الإسلام، فقد أصبحوا يكفرون الخلفاء[1] ويكفرون المخالفين لهم، بل وتتسع مساحة التكفير عندهم لتشمل كل من ارتكب ذنباً أو إثماً[2].

هكذا كان هذا التكفير الذي مارسه هؤلاء الثوار نكبة كبرى على دولة الإسلام، حيث كان قتل خليفة المسلمين عثمان على هذا النحو عملاً إرهابياً بشعاً، ولم يكن أحد من الصحابة في المدينة أو غيرهم يظن أن الأمر يبلغ قتله، كما أن عثمان نفسه كان يمنع الصحابة وأهل المدينة من الدفاع عنه بالاشتباك مع هؤلاء الثوار رغبة منه في حقن دماء المسلمين في المدينة[3].

بمقتل عثمان –رضي الله عنه– انفتحت أبواب الفتنة في الدولة الإسلامية على مصاريعها، وواجه علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– كثيراً من المشاكل، وظهرت هذه المشاكل بعد توليه الخلافة مباشرة، فقد ذكر ابن الأثير أن علياً لم يكن يرغب في الخلافة بعد مقتل عثمان فقد اجتمع إليه أصحاب رسول الله – ﷺ – من المهاجرين والأنصار، وقالوا له: "لابد للناس من إمام، قال: لا حاجة لي في أمركم فمن اخترتم رضيتُ به، فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر ذلك: إنا لا نعلم أحداً أحق به منك، لا أقدم سابقة، ولا أقرب قرابة من رسول الله – ﷺ – فقال: لا تفعلوا

(١) المرجع السابق، نفس الصفحات، الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة القاهرة ١٩٨٥، هامش ٥٠، ٥١.

(٢) د. عبد المجيد المشعبى: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ص٤٨٨.

(٣) د. حامد محمد الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلافة، طبعة الواحة الفنية (د.ت)، ص٢٧٢.

فإني أكون وزيراً خيراً لي من أن أكون أميراً، فقالوا: والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلا في المسجد، وكان في بيته، وقيل في حائط (بستان) لبني عمرو بن مبذول، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق وعمامة خز ونعلاه في يده متوكئاً على قوس، فبايعه الناس، وكان أول من بايعه من الناس طلحة بن عبيد الله"[1] وتبعه في البيعة الزبير بن العوام، وقال لهما علي –رضي الله عنه–: "إن أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما، فقالا: بل نبايعك"[2].

وإذا كان التكفير في أساسه في المرحلة السابقة قد انصب على الخليفة عثمان –رضي الله عنه– على نحو ما بينا، فإن التكفير في المرحلة القادمة، سيتضخم على نطاق واسع، ولابد من تتبع الأحداث التي صنعت فرقة الخوارج التي جعلت من التكفير أساساً لعملها السياسي والديني.

لم تُجدِ البيعة لعلي –رضي الله عنه– في استقرار الأمور والأحوال في الدولة الإسلامية، فقد بدأ علي –رضي الله عنه– نشاطه الإداري بعزل الولاة العثمانيين الأمويين، الذين كانت سياستهم في إدارة الولايات العامل الأساسي في تحريك الثورة ضد عثمان –رضي الله عنه– ومن بين هؤلاء الولاة معاوية –رضي الله عنه– الذي رفض قرار عزله من ولاية الشام، ورفض بيعة عليٍّ بالخلافة، واستقل بإدارة الشام عن الحكومة المركزية، وزاد معاوية في الأمر فاتهم علياً – رضي الله عنه– بتدبير قتل عثمان، أو بالاشتراك في ذلك التدبير والاغتيال في الأقل، ووقف خطيباً في وفد بعثه علي –رضي الله عنه– إلى معاوية لإعادته إلى الطاعة فقال معاوية بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة، فأما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٩٠، ١٩١.
(٢) المصدر السابق، ج٣، ص١٩١.

هي، وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لا نراها، إن صاحبكم قتل خليفتنا، ومزق جماعتنا، وآوى ثأرنا وقتلتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردّ ذلك عليه، أرأيتم قتله صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة"[1]. ولم يكتف معاوية بذلك بل حرك أهل الشام بثورة عارمة ضد علي –رضي الله عنه– بأن رفع قميص عثمان ملطخاً بدمائه، وأصابع زوجته نائلة على منبر المسجد في دمشق مثيراً ومحرضاً الناس على الثورة مطالبين بالثأر من قتلة الخليفة المظلوم[2].

كانت الأحوال تجري هكذا في الشام، بينما في المدينة المنورة كان ابن عباس –رضي الله عنهما– ينصح علياً فيقول له عندما سأله عن هذه الأحداث: "لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى تثبتهم لا يبالوا من ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا: أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا (عثمان)، ويؤلبون عليك، فتنتفض عليك الشام وأهل العراق، مع أنى لا آمن عليك طلحة والزبير أن يكرا عليك"[3].

وصدقت رؤية ابن عباس للأحداث، فبينما كانت الأمور تجري في دمشق على هذا النحو، كانت هناك حركة أخرى تزعمها طلحة والزبير، تطالب بالثأر من قتلة عثمان –رضي الله عنه– ولا تقر علياً في خطواته التي اتخذها للإصلاح الإداري للدولة الإسلامية، والتي كانت الخطوة الأولى فيها عزل ولاة عثمان الأمويين، وانضمت إليهما السيدة عائشة –رضي الله عنها– وتطور أمر

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦.

(٢) د. محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، ص٨٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص١٩٧.

خروجهم على عليّ –رضي الله عنه– إلى أحداث موقعة الجمل التي دارت وقائعها في البصرة، وقتل فيها طلحة والزبير، وهذه المعركة التي سبقت معركة صفين مباشرة كان لها تأثيرها البالغ في تفكيك عرى المجتمع الإسلامي وتفرقه، وتشرذمه إلى فئات متناحرة، ومختلفة على نفسها لم يستطع الخليفة الجديد علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– أن يجمعها في صعيد واحد يرأب صدع الأمة ويعيد إليها وحدتها[1].

وفي المدينة المنورة كانت هناك خروجات أخرى على سلطة الدولة ممثلة في الخليفة علي –رضي الله عنه– وهذه الخروجات تبناها أفراد أقل ما فعلوه أنهم رفضوا بيعة عليّ –رضي الله عنه– ومنهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مُخَلَّد، وأبو سعيد الخدري، والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت وغيرهم[2]. كذلك كان هناك خروج جماعي ضم الأعراب، وجماعات أخرى أيدتهم، وخرجت معهم إلى معركة الجمل.

وكان طلحة والزبير قبل أحداث معركة الجمل قد ذهبا مع عدد من

(١) د. محمد حلمي أحمد: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص١٩١، (مسلمة بن مخلد بن الصامت الأنصاري، من الصحابة وهو أول من جمعت له إمرة مصر والمغرب توفي سنة اثنين وستين (٦٢هـ)، ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢، مج٣، ج٦، ص٩٨–٩٩، ترجمة رقم ٧٩٨٣)، (أبو سعيد الخدري: هو سعد بن مالك منسوب إلى "الخدرة" وهم من اليمن، كان من فقهاء الصحابة وأعيانهم شهد الخندق وبيعة الرضوان وتوفي سنة (٧٤هـ)، ابن قتيبة: المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦، ص٢٦٨، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤، ج١، ص١٨٦)، (النعمان بن بشير بن سعد من بني الحارث بن الخزرج، ولد بالمدينة بعد هجرة الرسول ﷺ، كان عثمانياً ثم عزله معاوية بن أبي سفيان، فصار إلى الشام، فلما مات معاوية دعى النعمان لابن الزبير، وكان عاملاً على حمص فلما قتل الضحاك بن قيس (٦٤هـ) هرب النعمان من حمص وأدركه أهلها فقتلوه واحتزوا رأسه ووضعوه في حجر امرأته الكلبية، ابن سعد: الطبقات، ج٦، ص٥٣)، (زيد بن ثابت من أصحاب رسول الله ﷺ، كان مترئساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض توفي في خلافة معاوية سنة خمس وأربعين، ابن سعد: الطبقات، ج٢، ص٣٥٨–٣٦٢).

الصحابة للقاء علي في بيته، وقالوا لعلي: "يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل، وأحلّوا بأنفسهم. فقال: (علي) يا إخوتاه إنّي لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثابت إليهم أعرابكم وهم خلاطكم يسومونكم ما شاؤوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ قالوا: لا. قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه أبداً إلا أن يشاء الله"[1].

وعلى الرغم من هذه الشروح التي قدمها علي –رضي الله عنه– والتي أوضحت صعوبة الثأر لمقتل عثمان في ذلك الوقت على النحو الذي ذكره، فإن طلحة والزبير خرجا، حيث كانت معركة الجمل بأحداثها المروعة، والتي قتل فيها كما تذكر بعض الروايات نحوا من ثلاثة عشر ألف قتيل[2].

وفي الشام بدت الصورة أكثر قتامة، حيث كان معاوية يستعد بأهل الشام لخوض حرب طاحنة ضد الخليفة الشرعي للدولة الإسلامية، متعللاً – كما ذكرنا– بالثأر للخليفة المقتول عثمان ابن عفان، وكان اللقاء بين جيش عليّ وجيش معاوية عند صفين[3]، التي تبدأ عندها الأحداث التي تفجر منها الوجود الخارجي بفكره ومبادئه وقواعده وفي مقدمتها التكفير.

تقدم علي –رضي الله عنه– نحو صفين، وقضى الفريقان شهر المحرم من سنة سبع وثلاثين من الهجرة دون حرب، حيث اختلف الرسل بين علي ومعاوية طمعاً في الصلح، ولكن دون جدوى، فلما انسلخ شهر المحرم استعد الفريقان

(١) ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص١٩٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: د. مصطفى نجيب فواز، د. حكمت كشلى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥، ص١١٢.

(٣) صِفّين: بكسرتين وتشديد الفاء، وهي موضع بالقرب من الرقة على شاطئ الفرات، ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٤١٤.

للحرب، وتم الاشتباك بين الفريقين في أول صفر، ودامت الحرب عشرة أيام متواصلة تخللتها مبارزات فردية، واشتباكات ضارية، تبادل فيها كل منهما النصر والهزيمة، وفي اليوم العاشر رجحت كفة جيش علي، وأوشكت قوات علي على سحق جيش معاوية ومعه عمرو بن العاص[1]. الذي قال لمعاوية "هل لك في أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً، ولا يزيدهم إلا فرقة؟ قال: نعم، قال نرفع المصاحف، ثم نقول: ما فيها حَكَمٌ بيننا وبينكم، فإن أبى بعضهم أن يقبلها، وجدت فيهم من يقول: بلى ينبغي أن نقبل فتكون فُرقَةٌ تقع بينهم، وإن قالوا: بلى، نقبل ما فيها، رفعنا هذا القتال عنا، وهذه الحرب إلى أجل أو إلى حين، فرفعوا المصاحف بالرماح، وقالوا هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم... فلما رأى الناس المصاحف رُفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه"[2].

أدرك علي رضي الله عنه أن معاوية وعمرو بن العاص يمارسون خدعة يحمون بها أنفسهم، ولذلك أخذ علي يحذر أصحابه من هذه المكيدة فقال يخطب فيهم "عباد الله امضو على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط، وحبيب بن مسلمة، وابن أبي سرح، والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً، وصحبتهم رجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال... وما

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص١٠-٤٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٩٣، د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية ١٩٧٣، ص٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٤٨، (ويرى د. السيد عبد العزيز سالم أن ذلك الأمر قد دبر مقدماً بين معاوية وعمرو بن العاص، حيث أمرا أصحابهما بحمل نسخ من المصحف لترفع على الرماح عند الضرورة، وذلك لعلمهما أن جيش علي كان يضم فريقاً من القراء الذين يعملون بكتاب الله إذا دعاهم داع إلى ذلك، المرجع السابق، ص٣١٠.

رفعوا لكم إلا خديعة ودهناً ومكيدة"[1].

وهنا تبدو أول صورة ظهرت فيها تلك الجماعات التي صارت تعرف بعد ذلك بالخوارج –على حد تعبير ابن الأثير– حيث رفضت هذه الجماعات تحذيرات علي –رضي الله عنه– من خديعة معاوية وعمرو بن العاص، وتشير المصادر إلى أن هؤلاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك كان أكثرهم من القراء والبدو والأعراب من تميم وغيرها من القبائل العربية الأخرى كبكر وهمدان والأزد[2]. وأول من تذكرهم المصادر من الشخصيات المعلومة منهم مسعر بن فدكى التميمي، وزيد بن حصين الطائي[3].

وأصرت هذه الجماعات من الخوارج على قبول التحكيم، ووصل بها الأمر من أجل ذلك إلى تهديد عليٍّ –رضي الله عنه– بأن قالوا له: "يا علي أجب

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٤٨، ٤٩، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣١٦ مع خلاف في اللفظ.

(٢) بنو تميم من أكبر قواعد العرب وهم من تميم بن مر من القبائل المضرية ومن أشهرهم بني الحارث وبني عمرو وبني زيد، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ص٢٠٧ وما بعدها.

بنو بكر: هم ولد بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب وفيهم البيت والعدد، ومالك والحارث وعمرو وثعلبة ومعاوية وهؤلاء الستة يسمون الأراقم، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٠٤.

همدان: هم بنو همدان بن مالك بن زيد بن أوسَلة بن ربيعة بن الجنار بن مالك بن كهلان بن سبأ وهم بطون خمسة ترجع كلها إلى حَاشِد وبَكِيل ابنى جُشم بن خيران بن نوف بن همدان وقائلهم بنو يريم، بنو حَجُور، وبنو شبام، وبنو الخارق.. ابن حزم: الجمهرة، ص٣٩٢–٣٩٥.

الأَزْد: هم بنو الأزد بن الغَوثْ بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ من عرب قحطان وهم بطون كثيرة منهم بنو بارق وبنو العتيك وبنو شهميل وبنو الحَجْر وبنو ماسخه، وبنو عدنان، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٣٠، ٤٧٣–٤٧٤.

(٣) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٤٩، الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢٧، ص١١٤، (زيد بن حصن الطائي ثم السبنسي ذكر الهيثم بن عدي عن يونس بن أبي إسحاق أنه كان عامل عمر بن الخطاب على حدود الكوفة، وأخرجه محمد بن قدامة في أخبار الخوارج، ابن حجر: الإصابة في تميز الصحابة، مج٢، ج٢، ص٢٦–٢٧ ترجمة رقم ٨٨٧)، (مِسْعَر بن فدكى: هو... مِسْعَر بن فدكيُّ بن أعبد بن أسعد ابن منْقَر، ابن حزم: الجمهرة، ص٢١٧).

إلى كتاب الله عز وجل إذا دُعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عثمان... والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك"[1].

وهنا تبدو قوة الخوارج ممثلة في جماعة القراء وغيرهم من الأعراب ومن حذا حذوهم من رجال جيش علي، وتنامت نزعة التكفير عندهم بنفس الدرجة التي كانت عندهم عندما قتلوا عثمان –رضي الله عنه–، وها هم يهددون عليّ بنفس الطريقة، وبنفس الأسلوب وهو أسلوب التكفير الذي ينتهي بالقتل، فهو إذا لم يوافق على التحكيم فسوف يسلمونه إلى معاوية ومن معه ليقرر فيه حكمه، أو يقتلونه كما قتلوا عثمان من قبل ذلك، ولذلك ترك لهم عليّ –رضي الله عنه– اختيار أحد أمرين: إما طاعته ومواصلة القتال، وإما عصيانه فيفعلوا كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم، واختاروا أبا موسى الأشعري ممثلاً لأهل العراق في التحكيم، وحاول عليّ عبثاً أن يثنيهم عن هذا الاختيار، ورشح لهم عبد الله بن العباس أو الأشتر النخعي، فأبوا إلا اختيار أبي موسى الأشعري. وتمت كتابة وثيقة التحكيم التي تضمنت شروط التحكيم، وموعد اجتماع الحكمين على أن يُوافِي عليّ ومعاوية موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان، ومع كل واحد منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه[2].

أحدث قبول التحكيم رجة كبرى في جيش عليّ– رضي الله عنه– فبعد أن كُتبت وثيقة التحكيم أخذها الأشعث بن قيس الكندي وخرج يقرؤها

(١) الطبري: المصدر السابق، نفس الصفحة، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣١٧.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٧، وراجع د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، ص٣١٠، ٣١١، (دُومة الجندل: بضم الدال، ما بين برك الغماد ومكة وقيل ما بين الحجاز والشام والمعنى واحد، وهي على عشر مراحل من المدينة وعشرين من الكوفة واثنتي عشرة من مصر، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤، ص٢٤٥).

على الناس، ويعرضها عليّهم فيقرؤونها، حتى مر بها على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أُديَّة التميمي فقرأها عليّهم فقال عروة: "تُحكمون في أمر الله الرجال لا حكم إلا لله"[1] ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة فغضبت اليمنية وكادت أن تقع الفتنة بينها وبين تميم[2]. أما عليّ نفسه فقد قال للناس يوم صفين وقد أُجبر على قبول التحكيم: "لقد فعلتم فَعلةً أضَعفتْ قوة، وأسقطتْ منّة، وأوهنت وأورثت وَهْناً وذلّة... وأيم الله ما أظنكم بعدها توافقون رَشَداً ولا تصيبون باب حزم"[3].

عاد جيش عليّ إلى الكوفة وقد مزقته الفتنة وكانوا قبل ذلك قد خرجوا إلى صفين وهم متوادون أحباء، فرجعوا أعداء يتدافعون الطريق كله، ويتشاتمون، ويضطَرِبون بالسياط، وعندما بدأت طلائع جيش عليّ في الدخول إلى الكوفة رفض هؤلاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك الدخول إلى الكوفة مع عليّ وإنما انطلقوا إلى موضع يعرف بحروراء وكانوا كما تقدرهم بعض المصادر اثني عشر ألفاً وهناك في حروراء شكلوا حكومة منفصلة عن عليّ. حيث نادى مناديهم: "إن أمير القتال شبث بن ربعيّ التميمي وأمير الصلاة عبد

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢١، الأشعث بن قيس بن معدى كرب بن معاوية بن حيان بن عدى بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي، شهد اليرموك والقادسية وسكن وشهد صفين مع عليّ وله معه أخبار قيل مات بعد عليّ بأربعين ليلة وقيل مات سنة اثنين وأربعين (٤٢هـ)، (ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، مج١١، ج١، ص٥٠–٥١، ترجمة رقم ٢٠٣)، عُرْوة بن أدية وأبو بلال مِرْدَاس الخارجي: هما مِرْدَاس وعُرْوة ابنا عمرو بن حدير من ربيعة بن حنظلة وأدية جدة لهما من "محارب" نسبا إليها وذكر ابن حزم أنها أمهما، وكان مرداس رأس كل حرورى أما عروة فهو أول من قال "لا حُكْمَ إلا الله" على مذهب الخوارج يوم صفين، (ابن قتيبة: المعارف، ص٤١٠، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٢٣).

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢١.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٥٦، ٦٣، د. عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص٨٨.

الله بن الكواء اليشكري، والأمر شورى بعد الفتح، والبيعة لله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"[1] ومن هذه الجمل الثلاث في نهاية النص نلمح أولى المعالم المبكرة لفكر الخوارج السياسي، فالأمر شورى بعد الفتح، وبعد الفتح تعني أنهم اعتزموا قتال كل من عليّ ومعاوية، والأمر شورى والبيعة لله عز وجل يمثلان العودة إلى مبدأ الانتخاب العام لاختيار خليفة المسلمين وهذا المبدأ الأخير هو لب النظرية السياسية لدى الخوارج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثلان قاعدة التعايش في المجتمع الإسلامي الجديد في ظل فكر الخوارج.

هنا ينتقل الخوارج إلى آليات جديدة للعمل الخارجي تتناسب مع هذا الطور الجديد، حيث تظهر قيادات دينية وأخرى سياسية تتولى قيادة المواقف، والإعلان عنها في كل ما يطرأ في الساحة من أمور تخص الدين أو تتصل بالسياسة، فصار للخوارج قادة حربيون وقادة دينيون[2]. وهذا يعني أن الخوارج انتقلوا من دور ستر وكتمان أفكارهم التي ترتكز على التكفير إلى الدور

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٣، عبد الله بن الكواء اليشكري: هو عبد الله بن عمرو بن النعمان بن ظالم بن أبي عاصم بن سعد بن عمرو بن جشم بن كنانة اليشكرى، كان اسمه الأعرس فسماه رسول الله (ﷺ) عبد الله، وقيل لأبيه "الكواء" لأنه كُوِيَ في الجاهلية، كان ناسباً عالماً ومن أصحاب على (كرم الله وجهه) ثم كان أول أمير للخوارج حين اعتزلوا جيش عليّ وخرجوا عليه مع أنه كان من ذوي النجدة بين أصحاب عليّ (كرم الله وجهه)، (ابن قتيبة: المعارف، ص٥٣٥، البغدادي: الفرق، ص٧٥ هامش ١، ابن حزم: الجمهرة، ص٣٠٩، ابن النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران ١٩٧١، ص١٨١، ابن حجر: الإصابة، مج١، ج١، ص٥٤، ترجمة رقم ٢١٧، ومج ٢، ج٤، ص١١٤، ترجمة رقم ٤٨٥٣)، شَبَث بن ربْعيّ: شبث بن ربعى التميمي اليربوعي ويكنى أبا عبد القدوس أحد الأشراف والفرسان. وكان ممن خرج على عليّ وأنكر التحكيم ثم تاب وأناب وحدث عن عليّ وحذيفة وعن محمد بن كعب القرظي وسليمان النعيمي وله حديث واحد في سنن أبي داود، (ابن سعد: الطبقات، ج٦، ص٢١٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، (د.ت)، ج٤، ص١٥٠).

(٢) د. محمد أبو سعدة: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٩٨، ص٤٥، ٤٦.

العلني والتنظيمي الذي سيكون له الأثر الكبير في تطوير قاعدة التكفير كسلاح قوي لكل من يعارضهم أو يختلف معهم فيستبيحوا قتله.

وتأسيساً على ذلك نرى أن ظهور الخوارج ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة الإمامة والاجتهاد حولها، حتى إن أعداء الخوارج نظروا إليهم نظرة من حاول الوصول إلى الحق فأخطأه[1]. وتحول الخلاف حول الإمامة إلى صراع دموي تحركه قاعدة التكفير عند الخوارج.

ويقول الشهرستاني في هذا الشأن معبراً عن تحول هذا الخلاف حول الإمامة إلى صراع دموي: "وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان" [2]. ولذلك فالدارسون متفقون على صعوبة البحث في تتبع نشأة الخوارج[3]. فمؤرخ تلك الحقبة "ممتحن أعسر الامتحان وأشقه"[4]، ومكمن الصعوبة ليس في ندرة المعلومات وشحها عن الخوارج، وإنما في وفرتها وتضاربها واضطرابها، فالمرء بوسعه أن يُدين من يشاء ويبرئ من يشاء وله في الحالتين من القرائن والأدلة ما يعينه على ذلك[5].

انطلق عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– إلى الخوارج في حروراء في محاولة لإعادتهم إلى صفوفه مرة ثانية[6]. ودار بينه وبين الخوارج حوار نقله

(١) د. محمود إسماعيل: الخوارج وقضية التحكيم، المجلة التاريخية المصرية، المجلد العشرون، ١٩٧٣، ص٥٢.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص٢٤.

(٣) د. سهير القلماوي: أدب الخوارج في العصر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٤، ص٣٢.

(٤) د. طه حسين: الفتنة الكبرى، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠، ج٢، ص٩٢.

(٥) د. محمود إسماعيل: المرجع السابق، ص٥٤.

(٦) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٦٤، ٦٥، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص٣٢٧، ٣٢٨.

معظم المؤرخين فنَّد فيه عليّ– رضي الله عنه– موقف الخوارج، وتعطينا مصادر هؤلاء المؤرخين تفاصيل إضافية عن هذا الحوار الذي كان بين عليّ والخوارج في حروراء[1]. ولدى الطبري – من هؤلاء المؤرخين– نص غاية في الأهمية والدقة يكشف فرض الخوارج للتحكيم على عليّ أول الأمر ثم رجوعهم عنه بعد ذلك، فقد سأل عليّ الخوارج في حروراء "من زعيمكم؟" قالوا ابن الكواء: قال عليّ: فما أخرجكم عليّنا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين. قال: أنشدكم بالله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف فقلتم: نجيبهم إلى كتاب الله قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إني صحبتهم وعرفتهم أطفالاً ورجالاً، فكانوا شر أطفال وشر رجال، امضوا على حقكم وصدقكم، فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودَهْناً ومكيدة. فرددتم عليّ رأيي، وقلتم: لا بل نقبل منهم. فقلت لكم: اذكروا قولي لكم، ومعصيتكم إياي... قالوا له: (لعليّ) فخبرنا أتراه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكَّمنا الرجال، قالوا: فخبرنا عن الأجل، لم جعلته فيما بينك وبينهم؟ قال: ليعلم الجاهل، ويتثبت العالم، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة. ادخلوا مصركم رحمكم الله: فدخلوا من عند آخرهم"[2].

حدث التصالح إذن بين عليّ وبين الخوارج الذين فرضوا عليه قبول التحكيم، ثم عادوا ورفضوه، وعاد الجميع إلى الكوفة، ويذكر المبرد أن هذه الجماعة صارت تحمل ابتداء من تلك اللحظة اسم الحرورية، وقد أطلقه عليهم عليّ نفسه. بالإضافة إلى لقب المحكمة الذي ارتبط بشعارهم الذي

(١) نفس المصدرين السابقين، ونفس الصفحات.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٦٦.

رددوه "لا حَكَمَ إلا الله"[1].

لم تدم إقامة الحرورية في الكوفة طويلاً، فقد كان قرار عليّ بإرسال أبي موسى الأشعري لإتمام إجراءات التحكيم – في موعده في شهر رمضان– كافياً لتفجير الوضع من جديد، وقد اتخذ الخلاف في هذه المرحلة شكلاً عنيفاً، إذ صار الحرورية يعبرون عن رفضهم للتحكيم في الأماكن العامة وخاصة في المسجد الجامع حيث راحوا يقاطعون عليّاً وهو يخطب ويقولون: "لا حكم إلا الله"، ويستفزونه برفع شعاراتهم وبتلاوة آيات من القرآن تتهمه بالكفر"[2]، وحاولت عناصر أخرى منهم الاتصال به لإقناعه بالعدول عن إرسال وفد التحكيم، والاستعداد لاستئناف الحرب ضد معاوية، ويظهر من خلال النصوص التي تقدمها لنا المصادر قتامة الحوار الذي دار بينهم وبين عليّ حيث يبدو فيه استخفاف كبير بالخليفة وتهجُم عليّه، وتهديد له بالقتل رغم مركزه وقدم إسلامه وقرابته من رسول الله – ﷺ – فقد جاء على لسان أحدهم وهو زرعة بن برج الطائي قوله: "أما والله يا عليّ لئن لم تدع تحكيم الرجال في كتاب الله عز وجل قاتلتك أطلب بذلك وجه الله ورضوانه"[3].

لم تؤد التحركات الجماعية والفردية التي قامت بها الحرورية في الكوفة إلى نتيجة فقد أصر عليّ على إنجاز التحكيم، ورفض الرجوع عن العهد الذي قطعه على نفسه، ونتيجة لذلك بدأت استعدادات الحرورية للخروج على عليّ

(١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت، ج٢، ص١٤٠.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٧٣، أبو موسى الأشعري: اسمه عبد الله بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر بن عَنَزْ بن بكر بن عامر بن عذر ابن وائل بن ناجِته بن الجماهر بن الأشعر، أسلم قديما بمكة ثم رجع إلى بلاد قومه فلم يزل بها حتى قدم هو وناس من الأشعريين على رسول الله (ﷺ)، توفي سنة اثنتين وخمسين وقيل قبل ذلك بعشر سنين سنة اثنتين وأربعين (ابن سعد: الطبقات، ج٤، ص١٠٠–١١٥).

(٣) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٢.

مرة ثانية، وهو ما يظهر من خلال كثافة الاتصالات وكثرة الاجتماعات التي عُقدت في منازل زعماء الخوارج عبد الله بن وهب الراسبي، وشريح بن أوفى العبسي، وزيد بن حصين الطائي[1].

وتمدنا المصادر بتفاصيل خطيرة ومهمة عن المواضيع التي تمت مناقشتها خلال تلك الاجتماعات، كما تروي المصادر[2] خطبة لعبد الله بن وهب الرَّاسبي، وأخرى لحرقوص بن زهير السعدي التميمي، ومن خلال هذه الخطب تبرز معالم فكرة الخروج عن "القرية الظالم أهلها"، وهذه المنظومة الفكرية تطورت بعد ذلك عند الخوارج لتصبح مبادئ أساسية في فكرهم بعد أن كانت مجرد رغبات يشار إليها في خطبهم وأحاديثهم فأصبح الخروج ومفارقة المخالفين لهم أحد المبادئ الأساسية لهذه الحركة، ومحتواه لا يحمل معنى الابتعاد عن مكان الأعداء ومفارقتهم بقدر ما يحمل معنى الثورة وإعلان الحرب ضد معسكر الخليفة، الذي أطلقوا عليه مصطلحاً جديداً وهو "دار الكفر" في فترة لاحقة[3].

كما يذكر البلاذرى نقلاً عن الشعبي تبني الخوارج في هذه الفترة مبدأ

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩، ج٢، ص٣٦٣، د. لطيفة البكاي: حركة الخوارج، دار الطليعة بيروت ٢٠٠١، ص٣٥، شريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر بن جزء بن شيطان بن حذيم بن رواحه قتل يوم النهروان وفيه قيل: اقْتَتَلتْ همدان يوما ورجل، (ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٥١–٢٥٢)، عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي العماني، كان رأس الخوارج وأول من أُمر عليّهم بعد أن اعتزلوا عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) وقتل بالنهروان سنة ٣٨هـ (البغدادي: الفرق، ص٧٦، هامش ١، الدرجيني: طبقات المشائخ، تحقيق: إبراهيم طلاي، مطبعة قسطنطينة، الجزائر ١٩٧٤، ج٢، ص٢٠١–٢٠٢، اليافعي: مرآة الجنان، ج١، ص٣٩).

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة، الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٤.

(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، د. لطيفة البكاي: مرجع سابق، ص٣٦، حرقوص بن زهير السعدي، كان ذا بأس شديد، وكان أحد أمراء الأجناد في أيام عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– وهو الذي فتح الأهواز، شهد صفين ورفض التحكيم وكان من رؤس الخوارج وذكر البغدادي أنه كان معروفاً بذي الثدية، (البغدادي: الفرق، ص٧٦، الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٠٢، ٢٠٤).

آخر وهو "تكفير المخالفين لهم والبراءة منهم". فبعد أن شمل التكفير في حروراء معاوية وأنصاره، صار بعد قرار عليّ إجراء التحكيم، يشمل الخليفة عليّ نفسه والمساندين لعملية التحكيم، فقد انصرف الحرورية إلى "منزل عبد الله بن وهب الراسبي وذكروا أمر الحكمين وكفّروا من رضي بالحكومة وبرِؤُا من عليّ"[1].

وهذا يعني بداية التنظير للفكر الخارجي وأن التكفير في هذه المرحلة انتقل إلى مرحلة التطبيق الشامل على المخالفين لهم، لتوسيع دائرة المقاومة لكل من يعارضهم، وأصبح التكفير قاعدة مذهبية تكفر المخالفين لهم، وترفض النظام السياسي القائم وتسعى لإقامة نظام سياسي جديد يقوم على البراءة من المخالفين لهم، ولذلك تلازم التكفير والبراءة من المخالفين لهم تلازم اللحم والعظم في الجسد الواحد.

لم تسفر هذه الاجتماعات فقط عن التنظير، وطرح المبادئ والشعارات المنظمة لعملهم في المرحلة المقبلة، وإنما أيضاً تم الاتفاق في هذه الاجتماعات على، توقيت الخروج وتحديد المكان المقصود بهدف التجمع فيه وهو النهروان، وكيفية مغادرة الكوفة حيث رأوا ضرورة أن تتم المغادرة في سرية مطلقة، حتى لا يمنعهم أحد من الخروج، وأن يكون الخروج فرادى ووحداناً وليس في صورة جماعات[2].

نجح الخوارج في الخروج من الكوفة، والتجمع عند النهروان، وفي نفس الوقت ظهرت نتيجة التحكيم، وقد جاءت نتائجها مخيبة لآمال الجميع،

(١) البلاذرى: المصدر السابق، ج٢، ص٣٦٠.

(٢) الطبري: المصدر السابق، ج٥، ص٧٥، (وفي ذلك يروي الطبري تعليّمات أحد زعماء الخوارج وهو زيد بن حصين والذي قال لأتباعه الخوارج: "إنكم إن خرجتم مجتمعين أُتبعتم، ولكن اخرجوا وُحْداناً مستخفين، فأما المدائن فإن بها من يمنعكم، ولكن سيروا حتى تنزلوا جسر النهروان") المصدر السابق، نفس الصفحة.

ومغايرة تماماً لتوقعات عليّ بن أبي طالب فقد سلب التحكيم حق عليّ في الخلافة، وأعطى معاوية فرصة كبيرة كي يتقلد الخلافة بعد ذلك.

أما الخوارج فقد دعاهم عليّ– رضي الله عنه– إلى الدخول في الجماعة، وحاول أن يبين لهم أنه لا يختلف معهم بالنسبة لقضية التحكيم بدءاً ونهاية. ولكن الخوارج رفضوا عرضه إلا أن يشهد على نفسه بالكفر، ثم يثوب عائداً إلى الإسلام[1]، فيئس عليّ منهم. ومما قالوه لعليّ– رضي الله عنه– في هذا الشأن: "فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر، واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا فقد نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين فلما قرأ كتابهم أيس منهم"[2]. وهكذا شرع الخوارج في تطبيق التكفير وهو القاعدة الأساسية في فكرهم الإرهابي على الخليفة عليّ –رضي الله عنه– رأس الدولة وأتباعه ومن في معسكره، دون نظر إلى مكانته أو قيمته أو المصلحة العليّا لأمن الدولة الإسلامية وأمان المسلمين فيها.

على هذا النحو فشلت المناقشات والحوار في إقناع الخوارج بالعدول عن موقفهم الانفصالي المنشق على عليّ، ولذلك رجع عليّ وابن عباس إلى الكوفة، وراح الخوارج يعيثون في الأرض فساداً، ولكي يطبقوا قاعدة التكفير على مخالفيهم استخدموا مبدأً آخر وهو مبدأ الاختبار الذي راحوا يمارسونه على نطاق واسع مع مخالفيهم، يستعرضون الناس ويمتحنونهم في عقائدهم، وفي موقفهم من علي ومعاوية، وفي الأوضاع القائمة، فمن يجدون فيه تعاطفاً وتأييداً لمذهبهم وتوجهاتهم ومواقفهم، يثنون عليه ويتركونه إلى

(١) د. محمد حلمي أحمد: مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧، نَهرْوَان: كُورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، حدها الأعلى متصل ببغداد، (ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٢٤).

(٢) الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص٧٨.

حيث شاء، أما من يجدونه مخالفاً لهم فإنهم يسارعون بقتله والتمثيل به"[1].

وأشهر مواقف استعراضهم للمسلمين، مافعلوه بعبد الله بن خبّاب بن الأرت، حيث مر بهم عند حروراء، فسألوه عن رأيه في الأوضاع القائمة، وموقفه من علي ومعاوية ورأيه في موقفهم الخارجي من عليّ –رضي الله عنه– فاستنكر الفتنة والحروب بين المسلمين، وذكَّرهُم بحديث سمعه عن أبيه عن رسول الله– ﷺ – بأنه ستكون فتنة عظيمة بين المسلمين، وأن على المسلم ألا يشارك فيها بأية حال، حتى وإن اضطر إلى البقاء في داره حتى تنتهي الفتنة، فلما أدركوا أنه لا يوافقهم بل يكاد يُعَرِّض بهم في كلامه فقاموا إليه وقتلوه وبقروا بطن امرأته وكانت حبلى، كما قتلوا نسوة أخريات كن معه[2].

لما علم عليّ– رضي الله عنه– بذلك أرسل إلى الخوارج رسولاً يسألهم عما فعلوه بعبد الله بن خبَّاب، فقتلوا رسول عليّ– رضي الله عنه– وأتاه الخبر وهو بين الناس يحثهم على التوجه إلى الشام لمحاربة معاوية، فثار الناس، وطالبوا علياً بالتوجه لقتال الخوارج أولاً، لكن حكمة علي جعلته يرسل إلى الخوارج يطالبهم بتسليمه قتلة عبد الله بن خباب ومن كان معه من النسوة، فقالوا لعليّ كلنا قتلناهم، وكلنا يستحل دماءهم ودماءكم، إن الحق قد أضاء لنا فلسنا معكم وهنا قرر عليّ قتالهم وكانت معركة النهروان[3].

أراد عليّ أن يخرج إلى معاوية في الشام، فرفض رجاله، وأصروا أن يتجه بهم أولاً لقتال الخوارج حتى يطمئنوا على ذراريهم وبلادهم قبل أن يبرحوها لحرب معاوية، واستجاب عليّ– رضي الله عنه– لرأيهم، وألحق بالخوارج

(١) د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ص٥٣، ٥٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٤.
(٣) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٩٢، د. محمد حلمي أحمد، مرجع سابق، ص٨٧.

هزيمة كبيرة عند النهروان سنة (٣٨هـ/٦٥٨م)[١].

وتمثل معركة النهروان حداً فاصلاً للانفصال النهائي لجماعات الخوارج فكرياً وعسكرياً عن سلطة الدولة ممثلة في خليفتها عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– وتحولها إلى حركة معارضة قوية لا تقل شأناً عن حركات المعارضة التي واجهت الخليفة عليّاً والأمويين من بعده، ومن ثم سعى عليّ لاستئصال هؤلاء الخوارج والقضاء على فكرهم، إذ ستعود حركة الخوارج من جديد إلى النشاط، وسيكون لتحركها دور كبير في استنزاف قوة عليّ العسكرية وتشتيت أنصاره، فقد أحدثت معركة النهروان شرخاً عميقاً في علاقة عليّ بالكوفيين، فهذه المعركة اضطر فيها الكوفيون إلى قتل أبنائهم، وإخوانهم، وأقربائهم من الخوارج، وهو ما يظهر بوضوح من خلال موقف الكوفيين وتصرفاتهم مع عليّ، فلقد أصبحوا يماطلونه، ويتلكؤون في تنفيذ أوامره، والانفراط من حوله حتى ضعف نفوذه، وصار يقول فلا يلتفت أحد إلى قوله، ويدعو فلا يستمع أحد لدعوته[٢].

أما تأثير هذه المعركة على الخوارج فكان كبيراً وعميقاً، حيث قضت هذه المعركة على معظم زعماء الخوارج الذين نظَّروا للفكر الخارجي في المرحلة السابقة، وأفسحت المجال لظهور زعامات أخرى جديدة أكثر تشدداً وتوسيعاً لمجالات عمل المبادئ الخارجية السابقة، وأهمها التكفير وما يتبعه من البراءة والاستعراض.

انطلقت تحركات الخوارج مباشرة بعد معركة النهروان بمعدل حركة كان تحدث منهم كل شهر تقريباً، وامتدت هذه الحركات لتشمل باقي الفترة المتبقية من سنة (٣٨هـ/٦٥٨م) وحتى مقتل عليّ– رضي الله عنه– سنة

(١) المصدر السابق، ج٥، ص٩٢، د. محمد حلمي أحمد، مرجع سابق، ص٨٧.

(٢) د. لطيفة البكاي: مرجع سابق، ص٤٨.

(٤٠هـ/٦٦٠م)[١].

وتكاد المصادر تجمع على أن مقتل عليّ جاء إثر اتفاق تم بين الخوارج يقضي بقيام ثلاثة عناصر منهم وهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والبُرَك بن عبد الله، وعمرو بن بكر التميمي باغتيال قادة المعترك السياسي الذين رأوا أنهم كانوا وراء انقسام المسلمين وهم عليّ ومعاوية وعمرو ابن العاص. وبينما نجح الأول في اغتيال عليّ- رضي الله عنه- فشل الآخران في مهمتهما[٢]. وكان مقتل الإمام عليّ - رضي الله عنه- صورة مؤلمة من التطبيق العملي لفكرتي التكفير والبراءة لدى الخوارج دون نظر إلى القيمة والمكانة الكبرى لخليفة المسلمين، ودون أي اعتبار للمصلحة العليّا للإسلام والمسلمين، وظلت أصداء هذه الجريمة البشعة تدوي في أنحاء العالم الإسلامي ومازالت تُحدث تأثيرها البالغ في العالم الإسلامي حتى الآن.

بعد هذا العرض التاريخي الذي قدمناه لنشأة ظاهرة التكفير عند الخوارج، نرى أن قضية التكفير عند هؤلاء الخوارج قد وصلت إلى منعطف خطير حيث استخدموه وسيلة لإرهاب المجتمعات الإسلامية وبث حالة من الرعب فيها، حيث بالغ الخوارج في تكفير المسلمين وغالوا في ذلك إلى درجة أن أصبح هذا التكفير مبدأ يميز الخوارج عن غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، وتمثلت أهم مرجعيات ومنطلقات مبدأ التكفير عندهم في

(١) المرجع السابق، ص٥٣، البلخي: البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس ١٨٩٩، ج٥، ص٢٣٢، ٢٣٣، (وكان ابن ملجم قد شغف بامرأة اسمها قَطَام من الخوارج فخطبها فقالت له الصداق قتل عليّ، وكان عليّ قد قتل أباها وأخاها بالنهروان فضمن لها ذلك وسم سيفه وشحذه وضرب عليّاً عندما كان يصلي الفجر على رأسه بالسيف ضربة مات عليّ بعدها بثلاثة أيام، المصدر السابق، نفس الصفحة).

(٢) الطبري: مصدر سابق، ج٥، ص١٤٣، ١٤٤، ١٤٩، البلخي: البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس، ١٨٩٩، ج٥، ص٢٣١، ٢٣٢.

منطلقين[1]:

المنطلق الأول: هو مقتضى مبدؤهم في الإيمان، حيث عد الخوارج أن العبد لا يكون إلا أحد رجلين:

إما مؤمن بإطلاق كامل الإيمان، لا يشوب إيمانه أي قصور أو تقصير مهما كان ضئيلاً، واعتقدوا أنهم وحدهم هم أصحاب هذا الإيمان الكامل.

وإما كافر بإطلاق كامل، وهو كل مسلم قصر أو أهمل أو تقاعس عن أداء بعض الواجبات والطاعات المفروضة، أو ارتكب ذنباً أياً كان هذا الذنب صغيراً أو كبيراً، إذ ليس بين الإيمان والكفر حالة وسطى أو منزلة بين المنزلتين.

والدليل على أن الخوارج يكفرون بصغائر الذنوب وأنهم جعلوا صغائر الذنوب كالكبائر، أنهم جعلوا الإيمان جملة واحدة لا يُتبعض، إذا ذهب بعضه ذهب كله فلم يبق منه شيء، وقالوا: إن الإيمان هو مجموع ما أمر الله به ورسوله، وقالوا: ولا يجتمع في الشخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب ومعصية يستحق بها العقاب، ولا يكون الشخص الواحد محموداً من وجه مذموماً من وجه، ولا يتصور أن الشخص يدخل الجنة والنار جميعاً، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى، فالإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله[2]، "فجماع شبهتهم فيه: أن الإيمان كالشيء المركب من أجزاء، متى ذهب منه جزء ذهب كله، كالعشرة فإنه إذا زال بعضها لم تبق عشرة"[3].

المنطلق الثاني: هو مقتضى فهمهم لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾[4]، واعتقد الخوارج أن كل مخالفيهم في

(١) د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، ص١٦٥، ١٦٦.
(٢) د. عبد المجيد بن سالم المشعبي: منهج ابن تيمية في مسألة التكفير، ج٢، ص٤٨٨، ٤٨٩.
(٣) المرجع السابق، ص٤٨٩.
(٤) المائدة: الآية ٤٤.

مذهبهم ومبادئهم، حاكمون بغير ما أنزل الله، واعتقدوا بيقين أن مذهبهم هو المذهب الحق الأوحد، وقد راح الخوارج تطبيقاً لهذا يتصيدون ما اعتبروه أخطاء ارتكبها هؤلاء المخالفون ليحكموا عليهم بالكفر.

والدليل على ذلك أن الخوارج عندما دعاهم عليٌّ- رضي الله عنه- إلى صفوف الجماعة بعد انتهاء التحكيم، رفضوا عرضه إلا أن يشهد على نفسه بالكفر ثم يثوب عائداً إلى الإسلام، وقالوا له: "فإنك لم تغضب لربك، إنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة، نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين"(١).

وترتب على هذا أن أصبح للخوارج مسلكان الأول، تكفير مرتكبي المعاصي والذنوب من المسلمين. والثاني، تكفير مخالفيهم عامة سواء كانوا حكاماً أو محكومين.

التكفير تطوره وأثره في انقسام الخوارج إلى فرق:

كانت قاعدة التكفير هي الأساس الذي أرسى عليه زعماء الخوارج مذهبهم وكانت هذه القاعدة والقواعد الأخرى للمذهب هي مجرد آراء لزعمائهم التف حولها الخوارج، وأصبحت مبادئ ثابتة اجتمعوا عليها، ثم اختلفوا بعد ذلك فيما بينهم على بعضها سواء من الناحية النظرية أو من ناحية التطبيق العملي لها.

وتدور كافة المبادئ عند الخوارج على محور أساسي واحد وهو التكفير الذي طبقوه على كل من يتجاوز المبادئ الأخرى الموجودة في المذهب، فالتكفير عندهم سياج قوي يحفظ كيان مذهبهم، والكفر الذي أرادوه هو كفر الملة، الذي طبقوه على مخالفيهم من الناحية العملية في جميع معاركهم

(١) الطبري: تاريخ الطبري، ج٥، ص٧٨.

التي خاضوها مع خصومهم، فقتلوا المخالفين لهم، واستباحوا أموالهم، وسبوا نساءهم وأطفالهم. كذلك أصبحت دار المخالفين لهم معروفة عندهم "بدار الكفر"، ومن ثم أصبح الخروج من دار الكفر إلى دار الإيمان قاعدة مهمة لديهم، ولذلك أطلقوا على أنفسهم المهاجرين.

ولكي يطبقوا التكفير على المخالفين، التزموا بمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، ولذلك فالخوارج كَفَّروا أهل الذنوب، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب، حتى إنهم عدّوا الخطأ في الرأي ذنباً إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم[1]. ولذلك كفروا علياً– رضي الله عنه– لقبوله التحكيم، مع أنه لم يُقدم عليه مختاراً، ولو سُلِّم أنه اختاره، فالأمر لا يعدو أنه اجتهاد قد أخطأ فيه، وإن كان التحكيم جانب الصواب، فلجاجتهم في تكفيره –رضي الله عنه– دليل على أنهم يرون أن الخطأ في الاجتهاد يخرج من الدين[2].

يضاف إلى ذلك كله أنهم تمسكوا بظاهر نصوص القرآن، واستنبطوا منها أحكامهم، وفقاً لظاهرها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾[3] فجعلوا تارك الحج كافراً، مع أن ترك الحج ذنب[4].

ومن المعلوم أن الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وفرض من فرائضه التي عُلمت من الدين بالضرورة، فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام[5]. ولكن الخوارج اعتبروا أن تارك الحج مع إيمانه بفرضيته وأنه ركن من أركان الإسلام، اعتبروه كافراً أيضاً.

(١) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٥، ٦٦.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحات.
(٣) سورة آل عمران: الآية (٩٧).
(٤) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٦.
(٥) السيد سابق: فقه السنة، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م/١٤١١هـ، ص٣٥٣.

هكذا مارس الخوارج التكفير بطريقة مطلقة، ودون تمييز بين الأصول أو الفروع، ومثلت هذه المبادئ لوناً من التطرف الديني والسياسي، والخروج على سلطة الدولة الإسلامية، ومما يلفت النظر أن وحدة الخوارج في أول الأمر كانت ثابتة قوية تحت قاعدة التكفير، ولكن هذه القاعدة نفسها كانت هي السبب في تصدع الكيان الأساسي للخوارج وانقسامه إلى فرق تحمل مسميات جديدة نظراً للخلافات التي حدثت بين زعماء الخوارج وأهم هذه الفرق:

أولاً: المحكمة الأولى:

وهي الذين خرجوا على الإمام عليّ بن أبي طالب –رضي الله عنه– حين جرى أمر التحكيم، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وأول من بويع من المحكمة بالإمامة عبد الله ابن وهب الراسبى[1].

ثانياً: الأزارقة:

أتباع نافع بن الأزرق الحنفي، اجتمع عليه الخوارج وسموه أمير المؤمنين[2].

وهذه الفرقة كانت أكثر فرق الخوارج عدداً وأشدهم شوكة، ومن زعمائهم قطرى بن الفجاءة[3].

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص ١١٦، ١١٧.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٥، أبو راشد نافع بن الأزرق بن قيس من الدول بن حنيفة، وإليه ينسب الخوارج الأزارقة. كان أول خروجه بالبصرة وفي سنة ٦٥هـ اشتدت شوكته وكثرت جموعه فأرسل إليه عبد الله بن الحارث بن كريز بن ربيعة، واشتد بينهما القتال حتى قتل في آخر جمادى الأخرى، (ابن قتيبة: المعارف، ص٣١١، البغدادي: الفرق، ص٨٢ هامش ٤، ابن حزم: الجمهره، ص٣١١)، اليمامة: مدينة متصلة بأرض عمان من جهة المغرب مع الشمال كان اسمها جَوَّاً وسميت اليمامة بامرأة وهي زرقاء اليمامة (الحميري: الروض المعطار، ص٦١٩).

(٣) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٦٦، البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٦، قطريّ بن الفُجاءة: من بني حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ويكنى أبا نعامة كان رأس الخوارج، خرج أيام مصعب ابن الزبير. فبقي عشرين سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة، ووجه إليه الحجاج جيشاً بعد جيش، وكان آخرهم جيش سفيان بن الأبرد الكلبي الذي قتله بطبرستان سنة تسع وسبعين (٧٩هـ) (ابن قتيبة: المعارف، ص٤١١، الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص١٥١–١٥٢).

وتمثل أفكار الأزارقة برنامجاً ثابتاً يتعاملون به مع المخالفين لهم، وكان الخروج على أحد عناصر هذا البرنامج سببا في انقسام الخوارج إلى فرق، وأهم عناصر هذا البرنامج:

١- أنهم كفروا عليّاً– رضي الله عنه– وعثمان وطلحة والزبير وعائشة، وعبد الله بن عباس –رضي الله عنهم– وأبا موسى الأشعري وعمرو بن العاص وسائر المسلمين معهم، وقالوا بخلودهم في النار جميعاً[١].

٢- قولهم بأن مخالفيهم من هذه الأمة كفارٌ وأن دارهم دار كفر ومن أقام فيها ولم يهاجر لهم فهو كافر، ومن ثم استباحوا قتل نساء مخالفيهم، وقتل أطفالهم، وزعموا أن أطفال مخالفيهم مخلدون في النار[٢].

٣- قولهم بأن القَعَدة– ممن كان على رأيهم– عن الهجرة إلى معسكر الخوارج كفار لأنهم لم يهاجروا إليه. ونافع بن الأزرق هو أول من أظهر البراءة من القَعَدَةِ عن القتال معه، وإن كان موافقاً له على دينه[٣].

٤- أوجبوا امتحان من قصدهم إذا ادعى أنه منهم بأن يدفعوا إليه أسيراً من مخالفيهم، ويأمروه بقتله، فإن قتله صَدَّقوه في دعواه أنه منهم وإن لم يقتله حكموا بأنه منافق ومشرك وقتلوه[٤].

٥- أسقط الأزارقة حد الرجم عن الزاني، بدعوى أنه لم يذكر في القرآن، وأسقطوا حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال، مع أنهم أوجبوا تطبيق حد القذف على قاذف المحصنات من النساء[٥].

---

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٠، ١٢١، الأشعري: مقالات الإسلاميين، تحقيق: هلموت ريتر، الذخائر العدد ٦١، ص٨٧.

(٢) الأشعري: المصدر السابق، ص٨٩، البغدادي: مصدر سابق، ص٨٣، ٨٤.

(٣) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٣.

(٤) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٥) المصدر السابق، ص٨٤، الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢١.

٦- أنهم برئوا من أهل التقية وقالوا: إن التقية غير جائزة في قول أو عمل[١].

٧- اجتمعت الأزارقة على أن من ارتكب كبيرة من الكبائر فهو كافر كفر ملة وأنه خرج بهذه الكبيرة التي ارتكبها عن الإسلام، ويكون مخلداً في النار مع سائر الكفار، واستدلوا على ذلك بكفر إبليس وقالوا: "ما ارتكب إلا كبيرة حيث أُمر بالسجود لآدم –عليه السلام– فامتنع وإلا فهو عارف بوحدانية الله تعالى"[٢]. وعلى الرغم من ذلك قالوا: بأنه يجوز على الأنبياء أن يرتكبوا الكبائر والصغائر وذلك بلا ريب من المتناقضات في أقوالهم إذ إنهم بينما يكفرون مرتكب الكبيرة – كما أسلفنا– فإنهم يجوزونها على الأنبياء، فالنبي في نظرهم قد يكفر ثم يتوب[٣]، ذلك أخذوه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[٤].

٨- استحل الأزارقة لأنفسهم الأمانة التي أمر الله تعالى بأدائها لأصحابها، وقالوا: "إن مخالفينا مشركون فلا يلزمنا أداء أماناتهم إليهم"[٥]. كما أنهم قطعوا يد السارق في القليل والكثير، ولم يعتبروا في السرقة نصاباً"[٦].

ثالثاً: النجدات:

هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي، وكان نجدة قد خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحوق بالأزارقة، وفي طريقه التقى بأبي فُديك، وعطية بن

(١) المصدر السابق، ص١٢٢، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٨٩.
(٢) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٢.
(٣) المصدر السابق، نفس الصفحة، محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٧٤.
(٤) سورة الفتح: الآية رقم (١، ٢).
(٥) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص٨٤، الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٨٩.
(٦) البغدادي: المصدر السابق، ص٨٤.

الأسود الحنفي ومعهما جموع من الخوارج خرجت على نافع بن الأزرق لأنه كَفَّر القَعَدَةَ، وقال بأن التقية لا تحل، واستحل قتل أطفال مخالفيه ونسائهم. فبايع هذا الجمع الخارج على نافع نجدة بن عامر وأطلقوا عليه أمير المؤمنين.

رابعاً: البيهسية:

وهم أتباع أبي بَيْهس الهصيم بن جابر، وكان مطلوباً في زمن الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥- ٧١٥م) طلبه الحجاج (ت ٩٥هـ/٧١٣م) ففر إلى المدينة المنورة، فقبض عليه واليها عثمان بن حيان المُزني وحبسه حتى ورد إليه كتاب الوليد يأمره بأن يقطع يديه ورجليه ثم يقتله ففعل به ذلك[١].

وقد زعم بَيْهس "أنه لا يُسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسله ومعرفة ما جاء به النبي- ﷺ -، والولاية لأولياء الله تعالى والبراءة من أعداء الله"[٢].

خامساً: العَجَارِدَةُ:

وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد قال عنهم الأشعري إنهم من العطوية المنشقين على النجدات[٣]. بينما يروي الشهرستاني أنهم كانوا من أصحاب أبي بيهس ثم خالفوه وتفردوا عنه بجملة من الآراء فقالوا: "تجب البراءة عن الطفل حتى يدعى إلى الإسلام، ويجب دعاؤه إذا بلغ، وأطفال المشركين في النار مع آبائهم، ولا يرون المال فيئاً حتى يقتل صاحبه، وهم يتولون القَعَدَةَ إذا عرفوهم بالديانة، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويُكَفِرون بالكبائر، ويحكى عنهم أنهم ينكرون كون سورة يوسف من القرآن، ويزعمون أنها

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ص١٢٥، أبو بيهس من بني سعد بن ضبيعة بن قيس واسمه هيضم بن جابر، وكان عثمان بن حيان والي المدينة قد قطع يديه ورجليه، ابن قتيبة: المعارف، ص٦٢٢.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين، ص٩٣.

قصة من القصص، قالوا: ولا يجوز أن تكون قصة العشق من القرآن"[1].

سادساً: الثعالبة:

وهم أتباع ثعلبة بن مشكان، وهم يقولون بإمامة ثعلبة بعد أن اختلف مع عبد الكريم بن عجرد في حكم الأطفال، فقال ثعلبة إنا على ولايتهم صغاراً وكباراً حتى نرى منهم إنكاراً للحق ورضا بالجور، فتبرأت العجاردة من ثعلبة، وصار ثعلبة إماماً لأصحابه[2].

سابعاً: الصُفرية:

وهو أتباع زياد بن الأصفر الذي مال إلى التخفيف من التشدد مع المخالفين للصفرية، فهي فرقة لا ترى إباحة دماء المسلمين المخالفين لهم، ولا ترى أن دارهم دار حرب، ولا ترى جواز سبي النساء والذرية، بل إنها لا ترى قتال أحد غير معسكر السلطان[3]، ومن أشهر زعمائهم عمران بن حطان السدوسى[4]، ونجح هؤلاء الصفرية، في إقامة دولة لهم على المذهب الصفرى في سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى[5].

(١) الشهرستاني: مصدر سابق، ج١، ص١٢٨.

(٢) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص١٠٠.

(٣) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص٧٦، ٧٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٩١، ص٩٣، عمران بن حِطّان بن عبد الله الرقاشي من بني سَدوسي من بكر بن وائل. كان أبوه من أصحاب أبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت، وكان هو ناسكا شاعرا شديداً في مذهب الصفريَّة وتولى رئاستهم بعد مقتل مرداس، وتوفي سنة ٨٤هـ، (البغدادي: الفرق، ص٩٣، وهامش ١ من نفس الصفحة، ابن حزم: الجمهره، ص٣١٨، اليافعي: مرآة الجنان، ج١، ص٢٠٥).

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان و.إ. ليفى بروفنسال، ط دار الثقافة بيروت، ج١، ص١٥٦، د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم الكويت ١٩٨٧، ص٢٠٦، سِجِلْمَاسة: بكسر السين المهملة وكسر الجيم، وفتح الميم ثم ألف وسين وهاء في آخره، مدينة جنوبي المغرب الأقصى في طرف بلاد السودان عند جبل درن، أسسها مدرار بن عبد الله سنة ١٤٠هـ (البكري: المغرب في ذكر أخبار إفريقية والمغرب، ص١٤٨، مجهول الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨، ص٢٠٠، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٠٥).

ثامناً: الإباضية:

وهم أتباع عبد الله بن أباض المرى التميمي، كان أحد كبار زعماء الخوارج، وكان له فضل كبير في إحداث تعديل كبير في قاعدة التكفير في المذهب الخارجي، وهذا ضمن لهذه الفرقة من فرق الخوارج المعتدلة، – والتي تعد أقرب المذاهب الخارجية إلى مذهب أهل السنة[1]– الانتشار في بعض المواقع من العالم العربي، وكانت هناك محاولات لنشر هذا المذهب في اليمن وحضرموت قام بها أبو حمزة بن عوف الأزدي، وعبد الله بن يحيى طالب الحق[2].

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن بقاء الإباضية حتى الآن في بعض المواقع من العالم الإسلامي، في بلاد المغرب والخليج العربي حتى الآن كان نتيجة لما جرى على قاعدة التكفير من تعديل، وذلك في نهاية القرن الأول الهجري، فكُفرُ المخالفين عند الأزارقة وغيرهم من فرق الخوارج كُفرُ مِلة، أما التعديل الذي أجراه زعيم الإباضية عبد الله بن أباض، وزياد بن الأصفر زعيم الصُفْريّة، فهو أنهما عدا كفر المخالفين لهم كفر نعمة، أي أن المخالفين لهم

(١) الشهرستاني: المصدر السابق، ج١، ص١٣٤، د. محمد عيسى الحريري: الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، عالم الكتب بيروت ١٩٩٧، ص١٧، د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر تكوينها العربي والإسلامي، الأنجلو المصرية ١٩٧٠، ص١٦٤، د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الأباضية، طبعة ١٩٧٨، ص٧٧، ٧٨، عبد الله بن إباض المري التميمي رأس الإباضية في البصرة والأمصار وإليه ينسب المذهب الإباضي، اختلف مع الأزارقة وكان يميل للاعتدال عنهم، (الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢١٤، الشماخي: كتاب السير، طبع حجر بالجزائر، ج١، ص٧٢، د. الحريري: الدولة الرستمية، ص٧٨).

(٢) د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص ص ١٧–٢٦، أبو حمزة المختار بن عوف بن سليمان بن مالك ابن فهر الأزدي أحد زعماء الإباضية المشهورين وكان صاحب طالب الحق في ثورته، عنه انظر: الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٥٩–٢٧١، الشماخي: السير، ج١، ص٩١–٩٢، د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص١٨–٣٠، أبو يحيى عبد الله بن يحيى بن عمر بن الأسود بن عبد الله بن الحارث بن معاوية ابن الكندي. كان قاضياً لإبراهيم بن جبلة عامل القويم التابعة لحضر موت في عهد مروان بن محمد، لمزيد من التفاصيل عنه وعن ثورته: الدرجيني: طبقات المشايخ، ج٢، ص٢٥٨–٢٦٠، الشماخي: السير، ج١، ص٩١، د. الحريري: الاتجاهات المذهبية، ص١٨–٣٠.

كفروا بأنعم الله بما ارتكبوه من ذنوب وكبائر وخطايا، ولذلك فهم أبرياء من الشرك، لا تحل دماؤهم، وصححوا مناكحتهم، والتعامل معهم، واعتبروا أرض القبلة أرض توحيد، بمعنى أنها ليست أرض أعداء، وإنما تُعتبر وطناً للجميع من الخوارج وغير الخوارج دون تمييز[1].

على أن بعض الفرق التي نُسبت للخوارج جاءت بمبادئ تعد خروجاً على الإسلام، وفكرهم يتناقض مع ما جاء في كتاب الله تعالى، وما تواترت به الأخبار عن رسول الله– ﷺ– وهذه الفرق هي:

- اليزيدية: وهم أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي، وكان إباضياً زعم أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة، ويترك شريعة المصطفى– ﷺ – ويكون على ملة الصابئة المذكورة في القرآن[2].
- الميمونية: وهم أتباع ميمون بن خالد، وهؤلاء أباحوا نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات، كما أنكر هؤلاء أن تكون سورة يوسف من القرآن الكريم[3].

التكفير الخوارجي في العصر الحديث دوافعه وآثاره:

ظهرت في العالم الإسلامي في الآونة الأخيرة جماعات وتنظيمات اعتنقت فكر الخوارج التكفيري، وهذه الجماعات والتنظيمات يحدوها أمل الوصول إلى الحكم، ويدفعها إلى ذلك حب الزعامة، وتسترت هذه الجماعات لتحقيق أهدافها خلف أهداف ظاهرة كتحقيق العدالة، أو تحرير الأرض، أو مقاومة

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٣٤؛ د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الإباضية، ص٧٧، ٧٨.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٣٦.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٢٩.

الظلم، أو طرد المستعمر، واستحلوا من أجل ذلك كل الوسائل للوصول إلى أهدافهم في الحكم والزعامة، وغلفوا ذلك ببعض الشرعية كقولهم "لا حكم إلا لله" واعتبروا هذا الشعار تحللاً لهم من الالتزام بإمرة معينة وقد رد عليهم عليّ– رضي الله عنه– بقوله: "كلمة حق يراد بها باطل"[1]. ومن أمثلة ذلك أيضاً سوء فهمهم للقرآن الكريم ففي قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وَجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وَجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2]، قالوا: إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم، فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب من ثم أن يسمى كافراً[3]. ولا شك أن هذه الأمور التي أخطؤوا في فهمها وتعسفوا في تطبيقها. واستخدموا أبشع وسائل الإرهاب النفسي والإخافة للمخالفين لهم فحكموا عليهم بالكفر، ورأت جماعات الخوارج في التكفير مبدأً مرعباً يمكن أن يؤثر في ضعاف النفوس، فيسارعون إلى الانضمام إليهم خوفاً من أن يكونوا كفرة فيحل عليهم غضب هذه الجماعات، وقد حكمت عليهم بالكفر واستحلت دماءهم ونساءهم وأموالهم، على نحو ما جرى فعلاً من بعض الجماعات في مصر من الهجوم على محلات الذهب والاستيلاء على ما فيها.

وهذه الجماعات والتنظيمات منتشرة في بلدان العالم الإسلامي تحت مسميات مختلفة، ومن هذه الجماعات، تنظيم القاعدة، جماعة التكفير والهجرة، جماعة الجهاد، وجماعات أخرى، وإذا نظرنا فيما تبنته هذه الجماعات من المبادئ والقواعد لوجدنا أن أهم هذه المبادئ قاعدة التكفير، فهي قاسم مشترك عند كل هذه الجماعات، وهي أشد فرق الخوارج اليوم في

(١) د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، ص٦١، ٦٢.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٠٦.
(٣) المرجع السابق، ص٦٤.

التكفير للمسلمين حكاماً ومحكومين، وأشدهم في التطرف والقتل، وإذا عرضنا بعض أفكار هذه الجماعات التي ذكرناها– والتي اعتنقت فكر الإرهاب الخوارجي– فإننا سنشعر بكثير من الأسى لما تضمنته أفكارهم من انحراف عن جادة مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة التي جاء بها القرآن الكريم، وسنة رسول الله – ﷺ –.

أ– تنظيم القاعدة:

في مسألة التكفير أغنانا أتباع هذا التنظيم عن الاستدلال على ذلك حيث أعلن أسامة بن لادن رئيس هذا التنظيم في (التليفزيون) تكفيره لكل المسلمين الذين شاركوا في عضوية الأمم المتحدة وقال: فقد كفروا بما أُنزل على محمد – ﷺ –، مع أن الأمم المتحدة تأسست على معاهدة بين حكومات العالم لتبادل المصالح، وحماية الحقوق، كما هو معلوم في اتفاقية جنيف، والإسلام لم يمنع ذلك.

كما سجل بن لادن خروجاً على حكام المسلمين في المملكة العربية السعودية، الذين أسسوا المملكة على شريعة الإسلام والكتاب والسنة وأقاموا حدود الله، وناصرت المملكة أهل الإسلام في كل مكان[1].

واختط تنظيم القاعدة لنفسه استراتيجية هدفها استثارة حرب على أساس ديني تتسع باتساع العالم شرقاً وغرباً[2]. وعندما وضع تنظيم القاعدة هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ ظهر جلياً انطواؤها على خلل كبير، ومرد هذا الخلل، أن تنظيم القاعدة أخطأ في قراءة الواقع العالمي في ذلك الوقت.

(١) د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، بحث ضمن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ، ص٥٤.

(٢) كرم محمد زهدى وآخرون: استراتيجية تفجيرات القاعدة، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م، ص٢٧.

فالقاعدة كانت تُعلي منطق الصدام، وتوسع دائرة الصراع بغض النظر عن القدرات والمآلات، والمصالح والمفاسد والنتائج، علاوة على الفهم الخاطئ لفريضة الجهاد.

والملاحظ أن النتائج والآثار التي نجمت عن تلك الاستراتيجية تصب في غير مصلحة الأمة الإسلامية، وعندما نحاول حصر الخسائر الكبرى التي خسرها المسلمون نتيجة لهذه الاستراتيجية الفاشلة، نجدها تتضح فيما يلي[1]:

١- احتلال أفغانستان، والعراق بدعوى الحرب ضد الإرهاب.

٢- الإضرار بقضايا العالم الإسلامي والأقليات الإسلامية، بالخلط المتعمد بين حركات المقاومة للاحتلال والإرهاب.

٣- إفساح المجال أمام تحقيق الأهداف والطموحات الإسرائيلية.

٤- مطاردة تنظيم القاعدة والحركات الإسلامية أياً كانت أهدافها في إطار تحقيق الأمن العالمي.

٥- تعرض الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا خاصة لمضايقات عنصرية، وتشديد قوانين الهجرة واللجوء السياسي بها.

٦- التأثير السلبي على صورة الإسلام في العالم، وترويج صورة نمطية للإسلام تميل إلى وصمه بالإرهاب والعنف، وبالخطر الهائل، والعدو البديل.

٧- ما أحدثته تفجيرات القاعدة في الرياض، وفي المغرب، وفي جزيرة بالي الأندونيسية من خسائر وآلام في نفوس المسلمين، ومن إساءة إلى الإسلام وإلى صورته في نظر العالم شرقاً وغرباً[2].

(١) المرجع السابق، ٨٤-٨٨.

(٢) ناجح إبراهيم عبد الله وآخرون: تفجيرات الرياض، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص١١.

ب- جماعة التكفير والهجرة:

هذه الجماعات نشأت في مصر وكان يقودها شكري مصطفى، الذي كان طالباً بكلية الزراعة بجامعة أسيوط، واعتقل في سنة ١٩٦٥م، بتهمة انتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين، وظل في السجن ست سنوات حتى عام ١٩٧١م، وتولدت أفكاره التكفيرية الخوارجية داخل الزنازين والمعتقلات، وقاد شكري جماعته داخل السجن، واعتبر نفسه مصلحاً عظيماً، وجعل نفسه المهدي المنتظر، وبايعه أتباعه أميراً للمؤمنين، وقائداً لجماعة المسلمين، وسيطرت عليه وعلى جماعته فكرة التكفير للمخالفين، وانتهى به الأمر أن أُعدم وزملاؤه من قادة الحركة بتهمة اختطاف واغتيال الدكتور/ محمد حسين الذهبي الذي كان وزيراً للأوقاف في مصر في ذلك الوقت[١].

واستطاعت جماعة التكفير والهجرة أن تكوِّن لها مبادئ معينة وأصول وقواعد، تمسكت بها، وأن تبني منهجاً معيناً، يرتكز على فكر الخوارج، ونظموا أنفسهم في إطار هذا الفكر وعمدوا إلى تطبيقه على أنفسهم وعلى مجتمعهم، ويأتي التكفير على رأس هذه القائمة من المبادئ على النحو التالي[٢]:

١- التكفير ويشتمل على:

- "تكفير مرتكب الكبيرة والقول بخروجه من الملة وأنه خالد مخلد في النار كما تقول فرق الخوارج الأولى.
- تكفير المخالفين لهم من المسلمين (علمائهم وعامتهم) وتكفير المعين.
- تكفير من يخرج عن جماعتهم ممن كان منهم، أو من يخالف بعض أصولهم.

(١) د. أحمد جلي: دراسة عن الفرق وتاريخ المسلمين الخوارج والشيعة، ص١١٠، ١١١.

(٢) المرجع السابق، ص١١١؛ د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٨م، ص١١١، ١١٢.

- تكفير المجتمعات المسلمة (سواهم) والحكم عليها بأنها مجتمعات جاهلية.
- تكفير كل من حكم بغير ما أنزل الله مطلقاً دون تفصيل.
- تكفير من لم يهاجر إليهم، ومن لم يهجر المجتمع ومؤسساته.
- تكفير من لم يُكفر الكافر عندهم مطلقاً"[1].

٢- وجوب الهجرة والعزلة ويشتمل ذلك عندهم على:

- " هجر مساجد المسلمين وترك الصلاة بها، وترك الجمعة.
- هجر المجتمعات المسلمة من حولهم مطلقاً.
- هجر التعلم والتعليم، وتحريم الدخول في الجامعات والمدارس.
- هجر الوظائف الحكومية، وهجر العمل بمؤسسات المجتمع وتحريم مزاولة أي عمل فيما يطلقون عليه (المجتمع الجاهلي)"[2].

٣- الدعوة إلى الأمية ومحاربة التعليم:

- "وذلك بدعوى أن النبي -ﷺ- والصحابة كانوا أميين - إلا نادراً- وأنه لا يمكن التوفيق بين طلب العلوم الدنيوية، وبين عبادة الله تعالى بالصلاة والصوم والحج والدعاء والذكر، وتلاوة كتاب الله والجهاد والبلاغ، وأنه يمكن أن يتلقى المسلم القدر الضروري من العلم الشرعي بالتلقي المباشر دون اللجوء إلى تعلم القراءة والكتابة"[3].

٤- القول بالتوقف والتبين:

- "ويقصدون به كما يقصد أسلافهم الخوارج الأولون، التوقف في أمر

(١) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١١، ١١٢.
(٢) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١٢؛ د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، ص٥٨.
(٣) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: المرجع السابق، ص١١٢.

مجهول الحال من غير جماعتهم (من المسلمين) فلا يحكمون عليه بالكفر ولا يحكمون له بالإسلام إلا بالبينة، وهي لزوم جماعتهم ومبايعة إمامهم فمن أجاب فهو مسلم، ومن لم يجب فهو كافر"[1].

٥- "**القول بأن زعيمهم هو المهدي الذي يخرج آخر الزمان**، ويُظهر الله به الدين على سائر الأديان في الأرض"[2].

٦- **القول بتعارض الفرائض**:

- "ويقصدون بذلك جواز إسقاط بعض الواجبات والفرائض الشرعية فزعموا سقوط الجمعة عنهم لأنهم في حالة الاستضعاف وشرطها التمكين"[3].
- **ولهم سمات وعلامات أخرى مميزة لهم منها**:

- "إحداث أصول تشريعية جديدة تخالف منهج السلف، وردهم للإجماع، ومنع التقليد والاقتداء مطلقا، وإلزام جميع الناس بالاجتهاد.
- عدم اعتمادهم لفهم الصحابة والعلماء، وأئمة الهدى للقرآن والسنة.
- لا يعتدون بالخلافة الإسلامية من القرن الرابع الهجري فيكفرون العصور التالية.
- العنف والحدة في التعامل سمة مميزة لهم.
- التعالم والتعالي والغرور، والشعور بالتميز عن سائر المسلمين.
- استحلال الدماء والاغتيالات للمخالفين لهم ممن كان معهم ويسمونهم مرتدين"[4]. وكانت آخر عملياتهم في هذا المجال اختطاف الشيخ الدكتور

(١) المرجع السابق، ص١١٢، ١١٣.
(٢) المرجع السابق، ص١١٣.
(٣) المرجع السابق، ص١١٣، ١١٤.
(٤) د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، ص١١٣، ١١٤.

محمد حسين الذهبي وقتله، كما أنهم اغتالوا بعض الخارجين منهم عن جماعتهم[1].

وواضح من هذه الأصول والسمات التي عرضناها، أنهم جمعوا في فكرهم تركيبة من المبادئ التي يتصدرها التكفير الذي كان -كما ذكرنا- الآلية الرئيسية في مواجهة المخالفين لهم وهذه المبادئ أخذوها من كل فرق الخوارج الأول، وأصبحت هذه الأفكار مذهباً لهم يطبقونه بلا هوادة ولا رحمة على المجتمع.

ج- جماعة الجهاد:

نشأت جماعة الجهاد في أوائل سنة ١٩٧٤م برئاسة صالح عبد الله سرية، الفلسطيني الجنسية، والذي كان ينادي بقيام الدولة الإسلامية لتطبيق شريعة الله، مستخدماً في ذلك جميع طرق العنف، مع إباحة الدماء للوصول إلى هدفه، وجمع حوله الكثير من الأتباع خصوصاً من طلبة الجامعة، وبدأ نشاطه بحادث محاولة الاستيلاء على الكلية الفنية العسكرية، ولكن محاولته فشلت، وحوكم وأُعدم[2].

خلف صالح سرية في تنظيم الجهاد عبد السلام فرج الذي دعا إلى تكفير المجتمع بالكامل وأنه لا سبيل إلى الخلاص إلا بالقتل والعنف، وأن الآيات التي تدعوا إلى الصفح والعفو والتسامح هي آيات منسوخة، بينما الآيات التي تحض على القتال والجهاد هي الصحيحة، وصدر من هذه الجماعة كتاب "الفريضة الغائبة" وهي الجهاد الذي أصبح اسماً للجماعة.

(١) المرجع السابق، ص١١٤.

(٢) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص٣٣٩.

تضمن الكتاب أفكاراً أساسية للجماعة تدور حول[1]:

١- إقامة الدولة الإسلامية، أو الخلافة[2].

٢- حكام العصر تعددت أبواب الكفر التي خرجوا بها عن ملة الإسلام.

٣- الهجرة والعلم، والهجرة في نظرهم لإقامة الدولة الإسلامية، تقتضي الهجرة إلى بلد آخر وإقامة الدولة هناك ثم العودة مرة أخرى فاتحين.

٤- الخروج على الحاكم وتكفيره وخلعه إذا طرأ عليه كفر، أو تغيير للشرع، أو بدعة، وفي هذه الحالة وجب على المسلمين القيام عليه وخلعه، ونَصْبِ إمام عادل.

٥- القتال فرض على كل مسلم، للحكام الذين انتزعوا قيادتهم وجهادهم فرض عين على كل مسلم[3].

وكانت أخطر الجرائم الإرهابية التي نفذها أتباع هذا التنظيم، جريمة اغتيال الرئيس محمد أنور السادات في أكتوبر سنة ١٩٨١م، وقتل الدكتور رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب في أكتوبر سنة ١٩٩٠م[4]. بالإضافة إلى جرائم إرهابية أخرى، وهذه الجرائم كلها تشير إلى أن القتل والاغتيال كان الجانب التطبيقي لمبدأ التكفير الذي كان قاعدة أساسية في عقيدتهم.

د- جماعات أخرى:

هذه الجماعات الكبرى السابقة أفرزت جماعات صغرى، وكأن بلدان العالم الإسلامي أصبحت سوقاً رائجة لكل المتطلعين إلى السلطة، ومحبي الزعامة ومن هذه الجماعات:

(١) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٣٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤٢-٣٥٠.

(٤) د. محمد مورو: تنظيم الجهاد، الشركة العربية للنشر والإعلام، (د.ت)، ص٧٥، ص١٧١.

- **جماعة السماوية**:

كان عبد الله أحمد السماوي، وشهرته طه السماوي (٣٦)سنة ينتمي إلى جماعة التكفير والهجرة، وكان يعيش مع شكري مصطفى، وثمانية أفراد آخرين داخل زنزانة واحدة في أوائل السبعينات، وأطلقوا على زنزانتهم (المُكَفِرَة) لأنهم كانوا يكفرون الناس جميعاً بما فيهم رجال الدين والأزهر، وبعد خروج السماوي من المعتقل استقل بجماعته، وازداد تطرفاً عن جماعة التكفير والهجرة، وكان جريئاً في مهاجمة الحكومة في المساجد، وكان يكرر لأتباعه أن من يطيعه سيدخل الجنة لأنه يملك مفاتيحها.

ويقوم فكر السماوي على تكفير الحاكم والمحكوم، واعتبار المجتمع مجتمعاً جاهلياً، وقد انتهى السماوي بفكره إلى أن العمل في وظائف الحكومة، والقوات المسلحة كفر، والالتحاق بالتعليم كفر، وكان سلوكه الشخصي مع أتباعه يدل على مدى ما وصل إليه أتباعه من الجهل والضعف وقلة الفكر السليم، فقد كان السماوي في سجنه يسخر أتباعه لخدمته، وغسيل ملابسه، وتدليك جسده، وتجهيز ما يريد من أكل وخلافه[1]. ورفض السماوي الدخول في أي مناقشات مع رجال الدين حول أفكاره رفضاً باتاً.

- **جماعة الشوقيين**:

أمير هذه الجماعة الذي نسبت إليه هو شوقي الشيخ، الذي قتلته الشرطة، ثم كان أميرها بعده عادل عبد الباقي، الذي ترك الجماعة وتاب عما كان يفعل، وتعين على الجماعة بدلاً منه كمال توفيق.

والشوقيون جماعة تدعو إلى التطرف والغلو في الدين، ويقررون أن حكام مصر من الكافرين، وأن المواطنين المصريين كلهم كفار، ويجب محاربتهم

(١) حسن صادق: جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٤٤٠.

والقضاء عليهم بالقتل بأي صورة من صور القتل[1].

ويقرون باستحلال أموال كل من لا ينتمي إلى جماعتهم ولو بالقتل، ويحضُون على بناء مجتمع إسلامي جديد على أسس من مبادئ القرآن والسنة، وعليهم الفتك بكل من يعارضهم هو وعائلته، وقد انضم قادة التنظيم إلى الجماعة الإسلامية، ثم انفصلوا عنها وقد فضح أمير الجماعة التائب عادل عبد الباقي أسرارهم، حيث قرر أنهم يتزوجون عدة مرات حتى تصبح الزوجة متزوجة من عدة رجال في وقت واحد، ودون انتظار للعدة ولا يعنيهم من العقيدة إلا الجنس وحب الزعامة[2].

- جماعة الناجون من النار:

وهم خليط من الجماعات المختلفة، ويجتمعون في بعض الأحيان ثم ينفضون دون عمل إيجابي سوى المناداة بتكفير المجتمع والحكام، وإباحة قتلهم، ولا يستقرون على مبادئ معينة هادفة، وإنما يلجؤون إلى ارتكاب بعض الحوادث الفردية كتفجير القنابل والمفرقعات[3].

- جماعة طلائع الفتح:

وأمير الجماعة الأول هو أيمن الظواهري، الذي هو الآن الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، وقد شرح الجماعة فكرهم في كتابين "الحصاد المر"، "العمدة في إعداد العدة"، وقد تناول فكرهم نبذ مبادئ الإخوان المسلمين، وجهادهم ومحاربتهم للسلطات بالطريق السلمي، وقرروا أنه يجب أن تكون هناك فترة انتقال ليتمكن المسلمون بقيادتهم من فرض الحكم الإسلامي وأنهم المسئولون عن هذه الفترة التي يحكم فيها الكفار، حيث يجب إبادة

(١) المرجع السابق، ص٤٤١.
(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٣) حسن صادق: جدور الفتنة في الفرق الإسلامية، ص٤٤٢.

جميع الحكام والتخلص منهم لأنهم لا ينفذون شريعة الله، ولا يحكمون بكتاب ولا سنة. كما قرروا أن الحرب قائمة بينهم وبين كل من هو كافر في نظرهم سواء كان هذا من الحكام أو من الشعب، وقالوا إنهم لا يسعون إلى الحكم أو اعتلاء المناصب، وإنما فقط يعملون للتمهيد لمن يأتي بعدهم من المسلمين الصادقين[1].

بعد هذه الجولة مع هذه الجماعات الخوارجية المعاصرة والتي تبنت قاعدة التكفير أساساً لعملهم في المجتمعات الإسلامية وغير الإسلامية من بلدان الغرب والشرق، وظهر لنا من خلال تتبع أفكارهم المختلفة أن فكر الخوارج الأول كان دليلاً لهم في كل أعمالهم، وأنهم مارسوا مع مجتمعاتهم والمجتمعات الأخرى غير المسلمة ألواناً مختلفة من الإرهاب والقتل والتخريب، وأنها أضرت بسمعة الإسلام والمسلمين دولياً، حتى أصبح في الغرب ما يسمى (فوبيا الإسلام) أي الخوف من هذا الدين ومن معتنقيه حتى ولو كان هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام من الغربيين، ويلاحظ أن برامج هذه الجماعات تكاد تكون واحدة، والمستفيد الأكبر من أعمال هذه الجماعات هم أعداء الإسلام، لأن أفعال هذه الجماعات، تقدم الإسلام للآخر في صورة بالغة الهزال والقتامة، والخاسر الأكبر هم المسلمون، وعلينا أن نتذكر أن تفجيرات القاعدة أدت إلى احتلال أفغانستان، وضياع العراق، وضياع الكثير من مصالح المسلمين في أنحاء العالم، ولقسوة ضربات الخوارج المعاصرين المنسوبين للإسلام، وما هم من الإسلام من شيء، أصبحت كلمة الإسلام تعني في الغرب – بتأثير إعلامي صهيوني– كلمة الإرهاب، وقد أعطى غباء هذه الجماعات الفرصة للإعلام الغربي لكي يجعل من الإسلام عدواً جديداً

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.

للغرب ينبغي القضاء عليه.

وحقاً ما روي عن رسول الله – ﷺ – أن هؤلاء الخوارج الذين يخرجون في كل عصر ينبغي استئصالُهم من المجتمعات الإسلامية، فالرسول – ﷺ – يقول: ".. لئن أنا أدْرَكْتُهُمْ لأقتُلنهم قتل عادٍ"[1]، ويقول – ﷺ – في موضع آخر:" يأتي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُون من الإسلامِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهَم يَوْمَ القِيَامَةِ[2]".

(١) البخاري: صحيح البخاري، ج٥، ص٣٣١، (كتاب بدء الخلق) برقم (٢٩٨٩).
(٢) المصدر السابق، ج٦، ص٥٦، (كتاب المناقب) برقم (٣٢٣٠).

الخاتمة

غاية القول أن هذه الدراسة انجزت مجموعة من النتائج تجعل من هذه الدراسة عملاً علمياً جديداً، أبرز كثيراً النقاط المهمة حول موضوع التكفير وأهمها:

- أن التكفير نشأ متدرجاً وملازماً لأحداث الصراع الذي مرت به حركة الخوارج في صراعها مع السلطة الشرعية المتمثلة في الخليفة عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه– ومن جاء بعده من سلطات شرعية في أزمان تالية.
- أن التكفير في أثناء الثورة على عليّ بن أبي طالب– رضي الله عنه–، أصبح أساساً للعمل السياسي للخوارج لتحقيق أهدافهم مع خصومهم والحكم عليهم بالكفر، وليطبق عليهم عقوبة القتل وما يتبعها من أمور أخرى.
- أن الخليفة عليّ بن أبي طالب في أثناء صراعه مع الخوارج حاول ردهم بالحوار وعاونه في ذلك عبد الله بن عباس– رضي الله عنهما– ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل، ونتج عنها معركة النهروان التي كان لها أثرها في تفكيك جيش عليّ حتى أصبح هذا الجيش عاجزاً عن التجمع، أو تحقيق أي انتصار، وخُذِلَ عليّ– رضي الله عنه– حتى كانت نهايته.
- أن الخوارج قاموا باستعراض الناس للتعرف على ميولهم، فإن كانوا يحملون آراءهم اعتبروهم منهم، وإن كانوا مخالفين لهم، حكموا عليهم بالكفر والقتل، وسبوا نساءهم وأطفالهم، واستولوا على أموالهم.

- تتبعت الدراسة التكفير وتطوره وأثره في انقسام الخوارج إلى فرق، وأثبتت الدراسة أن بقاء المذهب الإباضى الخارجي حتى الآن في بعض المناطق من العالم الإسلامي كالمغرب وعمان كان نتيجة التطور الذي لحق قاعدة التكفير فبعد أن كان الكفر كفر ملة، أصبح كفر نعمة.
- تتبعت الدراسة الفكر الخوارجي المعاصر، ورصدت أهم التنظيمات والجماعات الإسلامية وفكرها، كتنظيم القاعدة، وجماعة التكفير والهجرة، وجماعة الجهاد وبعض الجماعات الأخرى، وأثر فكر هذه الجماعات على الإسلام، والأضرار التي لحقت بالإسلام والمسلمين نتيجة لذلك.

التوصيات :

- ما نراه في هذا المؤتمر من تضافر الجهود بين وزارة الداخلية وبين الجامعات السعودية ممثلة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، يمثل خطوة جادة لمواجهة الجماعات الخوارجية المعاصرة، وهذا التعاون المشترك لابد أن يمتد إلى سائر الجامعات في المملكة العربية السعودية على اعتبار أن الجامعات بيوت خبرة واسعة في المجال العلمي، ولديها رصيد هائل من العلماء الذين يعرفون شبهات الغلاة ودعاويهم وتلبيساتهم ومزاعمهم، ولدى هؤلاء العلماء خبرة واسعة بكيفية الرد عليهم، كما أن هؤلاء العلماء يعملون في الجامعة موطن معظم الشباب السعودي، ولاشك أن التعاون بين الداخلية والجامعة سوف يؤتي ثماره، وذلك أفضل بكثير من عمل كل منهما منفرداً.
- تعظيم دور العلماء ورجال الدين، والدعم الكامل لهم بكل الوسائل

المسموعة والمقروءة والمرئية، وتهيئة كل الظروف والسبل التي تمكنهم من التوعية بخطورة هذه الجماعات على أبناء الأمة. ولاشك أن مهمتهم ستكون سهلة لأن الدولة السعودية يقوم نظامها على الإسلام وتحكيم الشرع والعمل بالكتاب والسنة والجماعة.

- وفي إطار ضرورة التوعية لابد أن يكون هناك تنسيق كامل ومنظم بين الجامعات وأجهزة الإعلام والداخلية، والمؤسسات العلمية البحثية لرصد أعمال هذه الجماعات ودراستها، وشرح خطورتها.
- تشكيل مجلس علمي يتضمن جهازاً علمياً من العلماء ومن المتخصصين الأمنيين في الداخلية للرد على شبهات هذه الجماعات من خلال شبكة المعلومات (الإنترنت)، وشرح فساد مبادئها ومخالفتها للشريعة.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم (ت٦٣٢هـ)، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت ٣٨٠هـ)، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، طهران ١٩٧١.
- ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.
- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، (د.ت).
- ابن سعد: محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ)، الطبقات الكبرى، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).
- ابن عذارى: المراكشي (كان حيا ٧١٢هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س.كولان، إ.ليفى بروفنسال، طبعة دار الثقافة، بيروت (د.ت).
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٦.
- ابن كثير: أبو الفدا (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة (د.ت).
- الأشعري: أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت٣٢٤)، مقالات الإسلاميين: تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٨٥. ونسخة أخرى عني بتصحيحها هلموت ريتر طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة الذخائر رقم (٦١)،

القاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبه الجعفى البخاري (ت ٢٥٦هـ)، صحيح البخاري، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ج١٠، طبعة القاهرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي (ت ٤٢٩هـ) الفرق بين الفرق، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت (د.ت).
- البكري: أبو عبيد الله عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، طبعة مكتبة المثنى ببغداد (د.ت).
- البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (ت ٢٧٩هـ)، أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩.
- البلخي: أبو زيد أحمد بن سهل (ت ٣٢٢هـ)، البدء والتاريخ، تحقيق: كلمان هوار، طبعة باريس ١٨٩٩.
- حسن صادق: (لواء) جذور الفتنة في الفرق الإسلامية، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.
- الحميري: محمد بن عبد المنعم (عاش في القرن السابع الهجري)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٤.
- خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري (ت٢٤٠هـ)، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: د. مصطفى نجيب فواز، د. حكمت كشلى فواز، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٥.
- د. إبراهيم العدوي: بلاد الجزائر تكوينها العربي والإسلامي، الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.
- د. أحمد محمد أحمد جلي: دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، طبعة مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٣.

- د. باسم بن فيصل الجوابرة: التكفير في ضوء السنة النبوية، جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود (العالمية)، الدورة الثانية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- د. حامد محمد الخليفة: الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف، طبعة الواحة الفنية، (د.ت).
- د. سهير القلماوي: أدب الخوارج في العصر الأموي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٤.
- د. عبد الشافي عبد اللطيف: العالم الإسلامي في العصر الأموي، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٤.
- د. عبد المجيد بن سالم بن عبد الله المشعبى: منهج بن تيمية في مسألة التكفير، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- د. عوض محمد خليفات: نشأة الحركة الإباضية، طبعة عمان ١٩٧٨.
- د. فهد بن سليمان الفهيد: تأثر الخوارج المعاصرين بأصول الخوارج المتقدمين، بحث ضمن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ.
- د. كرم محمد زهدي وآخرون: استراتيجية تفجيرات القاعدة، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- د. لطيفة البكاى: حركة الخوارج، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠١م.
- د. محمد أبو سعده: الخوارج في ميزان الفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨م.
- د. محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر الأموي، مكتبة الشباب، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧.
- د. محمد عيسى الحريري: الاتجاهات المذهبية في اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجري، طبعة عالم الكتب، بيروت ١٩٩٧.
- د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب، دار القلم، الكويت ١٩٧٧.
- د. محمد مورو: تنظيم الجهاد، الشركة العربية للنشر والإعلام، (د. ت).
- د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج وقضية التحكيم، المجلة التاريخية

المصرية، المجلد العشرون، ١٩٧٣.

- د. ناجح إبراهيم عبد الله وآخرون: تفجيرات الرياض، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- د. ناصر بن عبد الكريم العقل: الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام، دار إشبيليا، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- الدرجينى: أبو العباس أحمد الدرجينى (ت ٧٦٠هـ)، طبقات المشائخ، تحقيق: إبراهيم طلاى، مطبعة قسطنطينه، الجزائر ١٩٧٤.
- الذهبي: شمس الدين محمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت (د.ت).
- الزبيدي: محمد مرتضى الحسينى الزبيدي، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، وزارة الإعلام بالكويت، ج١٤، ١٩٧٤.
- السيد سابق: فقه السنة، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- الشماخى: أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت٩٢٨هـ)، السير، طبع حجر، الجزائر (د.ت).
- الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر محمد الشهرستاني (٤٧٩–٥٤٨هـ)، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٤م.
- صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان: التكفير وضوابطه، المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤–٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الرابعة، (د.ت).
- طه حسين: الفتنة الكبري، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٠.
- المبرد: أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب، مكتبة

المعارف بيروت (د.ت).

- مجهول: كاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجري، الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: د. سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨.
- محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، طبعة دار الفكر العربي، بالقاهرة (د.ت).
- اليافعي: عفيف الدين بن عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٥هـ)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تحقيق: عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٤.
- ياقوت: شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت (د.ت).